أجاثا كريستي

اللغز المثير

المكتبة الثقافية
بيروت - لبنان

S. Ghantous

أجاثا كريستي

اللغز المثير

تعريب
عمر عبد العزيز أمين

المكتبة الثقافية
بيروت - لبنان

- ١ -

اللغز المثير

قالت الليدي سينثيا المستر ساترويت وهي تقرأ بصوت مسموع النبـــأ التالي في إحدى الصحف اليومية :

« يقيم المستر والمسز انكرتون في بيتهما جرينواي هاوس حفلة في نهاية هذا الأسبوع ، وسيكون من بين المدعوين : الليدي سينثيا دربج ، والمستر رتشارد سكوت وزوجته والميجور بورتر ، والمستر ستافرتون ، والكابتن اليدسون ، والمستر ساترويت » .

ثم أردفت قائلة وهي تطرح الصحيفة جانباً :

– من الخير ان يعرف الانسان من هم المدعوون الذين سيكون بينهم في حفلة ما .

وأومأ لها المســتر ساتروبت برأسه موافقــاً ، بينما استطردت هي قائلة :

– مثلا ، هل تعرف المستر رتشارد سكوت ؟

– نعم ، نعم .. اليس هو صياد الوحوش المشهور ؟

ـ إنه هو ، صياد « النمور والسباع » كما تقول الأغنية ، وهو نفسه سبع كبير ، ولا شك ان آل أنكرتون مسروررن بقبوله الدعوة ، ثم هناك عروسه الحسناء ، إنها طفلة جذابة فاتنة لا يزيد عمرها عن عشرين عاماً ، بينما لا يقل هو عن الخامسة والاربعين من العمر . يا لها من مسكينة !

وكانت الليدي سيلشيا نفسها سيدة في نحو الأربعين ، تسرف في وضع مساحيق الزينة على وجهها الجامد الحازم ، الذي تطلع اليه ساترويت ، وهو يسأل مندهشاً :

ـ مسكينة ؟! لماذا ؟!

فألقت الليدي عليه نظرة غاب ..

ولكنها استطردت تقول :

ـ أما الميجور بورتر ، فلا بأس به . إنه أحد صيادي الوحوش في أفريقيا ، ملوح الوجه ، هادىء ، قليل الكلام ، صديق حميم لرتشارد سكوت ، كما انه معجب به كل الإعجاب ، وأنا أعتقد انه كان معه في تلك الرحلة .

ـ أيةرحلة؟

ـ الرحلة داخل افريقيا التي أعدتها مسز ستافرتون . أخشى ان تقول انك لم تسمع أيضا عن مسز ستافرتون ؟

ـ بل سمعت عنها .

فغمزت الليدي بعينها وقالت :

ـ ما كان ينبغي ان يجمع آل انكرتون في حفلتهم بينها وبين رتشارد سكوت بعد ان تزوج اخيراً . فقد كانت مسز ستافرتون في تلك الرحلة الأفريقية ، ولاكت الألسن الأقوال عن علاقتها الغرامية برتشارد ..

ولكن المهم هو كيف قبلت هذه المرأة دعوة آل أنكرتون !

– لعلها لم تعرف ان رتشارد وزوجته سيكونان من المدعوين !

– إنها تعرف ذلك تماما . وأعتقد انها إمرأة خطيرة لا تتراجع عن هدف من أهدافها إني أرثي لرتشارد منذ الآن .

– وزوجته ؟. هل تعرف شيئا عن علاقة زوجها السابقة بالمسز ستافرتون ؟

– لا .. ولكن تأكد ان بعض المدعوين سيتطوعون لإخبارها ، عاجلا او آجلا . آه هذا هو جيمي اليتسون . يا له من شاب لطيف .. فقد كان لطيفا جداً معي أثناء زيارتي لمصر ، في الشتاء الماضي . ها جيمي .. تعال هنا .

فأطاع الكابتن اليتسون وجلس معها في الشرفة .

وكان شابا في الثلاثين من عمره ، وسيما ، لطيفا ، يتمتع بأسنان ناصعة البياض .

وقد قال في مرح :

– يسرني إني وجدت من يريدني ، فإن المدعوين جميعا مشغولون في هذه اللعبة او تلك . وقد خشيت ان تهتم مضيفتي ، مسز انكرتون ، بأمري .. فتكون الطامة الكبرى .

فضحكت الليدي سينثيا بينما استطرد جيمي قائلا :

– وأسوأ من هذا ، خشيت ان تقص علي مسز انكرتون ، قصة شبح الأسرة .

فصاحت الليدي سينثيا قائلة :

– شبح أسرة انكرتون ! يا للهول !!

وهنا قال مستر ساترويت بهدوء :

– لا ، ليس شبح آل انكرتون . إنه شبح آل جريندواي ، الذين

كانوا يملكون هذا المنزل .. فقد اشارى انكرتون ، هذا البيت ، والشبح معه !

– آه ، إني أتذكر الآن ! ولكنه ليس شبحا يفاجىء المقيمين في البيت بصليل سلاسله .. وإنما هو ، على ما أذكر ، شبح نافذة !

فقال الكابتن الينسون في دهشة :

– نافذة ؟!

ولم يجب المستر ساترويت عندئذ ، وإنما كان مشغولاً بالنظر إلى ثلاثة أشخاص متجهين نحو المنزل : فتاة ممشوقة القوام بين رجلين كل منهما طويل القامة ، ملوح البشرة ، سريع النظرات ، وفيما عدا هذا ، فلم يكن ثمة تشابه .

إن أحدهما الرحالة رتشارد سكوت ، وكان رجلاً قوي المظهر ، عارم الشخصية ، جذاباً في سلوكه وتصرفاته . أما الميجور بورتر ، صديقه وزميله في الصيد ، فكان جامد الوجه ، هادىء السمات ، تنم عيناه الزرقاوان على التفكير والتأمل المستمر . وبينهما كانت تسير ميورا سكوت ، عروس رتشارد التي تزوجها قبل ذلك بثلاثة أشهر ، وكانت فتاة ممشوقة القوام ، ذات عينين واسعتين كستنائيتين ، وشعر ذهبي اللون ، يميل إلى الحمرة ، ويدور حول وجهها كأنه هالة من نور .

فقال ساترويت لنفسه :

« لا ينبغي أن تصاب مثل هذه الطفلة بأي سوء . إن من العار ان تعاني طفلة كهذه من شرور البشر » .

وحيت الليدي سينثيا القادمين بيدها وبفيض من عبارات الترحيب ، ثم قالت :

– إجلسوا ولا تقاطعوا مستر ساترويت ، فسوف يقص علينا

قصة شبح !

فقال رتشارد سكوت :

– شبح جرينواي ؟

– نعم ، أتعرف قصته ؟

– نعم ، كنت أتردد من قبل على هذا البيت قبل أن يبيعه آل اليوت ، وهم يسمون الشبح « الفارس الرقيب » أليس كذلك ؟

وهنا تمتمت زوجته بصوتها الناعم قائلة :

– الفارس الرقيب ؟! يبدو ان القصة ممتعة حقاً ، حدثنا عنها يا مستر ساترويت .

وحاول ساترويت أن يروغ ، بأن أوضح لهم انها قصة خالية من عامل التشويق ، ولكنهم ألحوا عليه .

فلم يجد مفراً من الحديث فقال :

– أعتقد ان القصة الأصلية تدور حول فارس كان جداً لأسرة آل اليوت . وكان لزوجته عشيق من حزب معارض وقد فر هذا العشيق هارباً مع الزوجة ، بعد ان قتل الزوج في إحدى غرف الطابق العلوي ، ولكن العشيقين ، أثناء فرارهما من البيت ، استدارا اليه ، فرأيا في نافذة الغرفة ، التي كانت مسرحاً للجريمة ، وجه الزوج القتيل يراقبهما .

هذه هي الأسطورة كلها ، لكن الذي حدث بعد ذلك ، ان زجاج نافذة تلك الغرفة كان يبدو من قريب نظيفاً لا أثر للبقع فيه ، لكن الناظر اليه من بعيد يخيل اليه انه يرى وجه فارس رقيب يظهر خلفه .

فرفعت مسز سكوت رأسها ، ونظرت إلى واجهة المنزل ، وهي تسأل :

– أية نافذة هي ؟

– إنك لا ترينها من هذا المكان ، لأنها في الجانب الخلفي من المنزل . وقد كسيت جدرانها بالألواح الخشبية منذ أربعين عاماً تقريباً . وقد أغلقت الألواح النافذة من الداخل .

– ولماذا فعلوا ذلك ؟ فقد خيل لي انك ذكرت ان الشبح لا يخرج من الغرفة .

– نعم ، ولكن الخرافات كثرت حول ذلك الشبح، فآثر أصحاب المنزل السابقون وضع حد لتلك الخرافات .

وعندئذ استطاع بلباقة أن يدير دفة الحديث إلى موضوع آخر ، وهو موضوع الرجم بالغيب عن طريق الرمل ، أو ورق اللعب ، أو القواقع الجافة .

وهنا قال رتشارد ضاحكاً :

– لقد حاولت ميورا أن تغري غجرية من الراجمات بالغيب ، أن تنبئها عن المستقبل ، ولكن العرافة أعادت اليها النقود ، ورفضت أن تقول لها شيئاً .

فردت ميورا :

– لعلها رأت في صفحات مستقبلي أحداثاً رهيبة ، فرفضت أن تصدمني بها .

فقال لها الكابتن اليلسون باسماً :

– أوه ! لا تركني إلى التشاؤم يا مسز سكوت ، فأنا أحد الذين يؤمنون بأن أفراح الحياة بانتظارك دائماً .

فقال مستر ساترويت لنفسه :

« أرجو ذاك . لكن . »

وفجأة نظر أمامه بسرعة ، فرأى سيدتين تخرجان من المنزل ، إحداهما بدينة قصيرة ، سوداء الشعر ، ترتدي ثوباً من الحرير الأخضر ، والثانيـــة

طويلة القامة ، ممشوقة القوام ، في ثوب من الحرير الأبيض . والسيدة الأولى كانت مسز انكرتون المضيفة ، أما السيدة الثانية فلم يكن ساترويت قد رآها من قبل .

فقالت المسز انكرتون في زهو :

– هذه مسز ستافرتون قد وصلت أخيراً ، أعتقد ان المدعوين جميعاً قد تكامل عددهم .

وركز ساترويت نظراته على مسز ستافرتون ، فرآها طبيعية في حركاتها وفي حديثها ..

فقالت لرتشارد سكوت في غير مبالاة :

– هالو رتشارد .. يخيل إلي إني لم أرك منذ أجيال وأجيال ، وإني أقدم أسفي ، حيث لم أتشرف بالحضور إلى حفلة زواجك أهذه عروسك ؟ لا شك انك يا عزيزتي قد مللت الجلوس مع أصدقاء زوجك الصيادين الملوحي الوجوه دائماً .

فردت ميورا برقة وخجل ، بينما كانت مسز ستافرتون تمحصها بنظرات سريعة ، ثم إذا بها تتحول بسرعة إلى الكلام مع الليدي سينثيا بنفس البساطة والخفة .

فأدرك ساترويت انه أمام إمرأة خطيرة حقاً تعرف كيف تخفي مشاعرها خلف ستار من اللطف والنعومة . إمرأة ذهبية الشعر ، عيناها زرقاوان وصوتها ذو رنين خاص ، كما أنها مضيئة بالابتسام .

وجلست ايريس ستافرون لتغدو ، منذ اللحظة الأولى ، موضع اهتمام الجميع وهذا ما أدركه ساترويث على الفور .

وتذكر فجأة ان الميجور بورتر عرض عليه أن يتمشيا قليلا في الغابة المجاورة ، ومن ثم نهض وأومأ له ، وما لبثا ان سارا في الممر المؤدي إلى خارج المنزل .

فقال الميجور :

– إن قصة الشبح التي حدثتنا بها الآن عجيبة حقاً .

– لسوف أطلعك على النافذة ، التي كان شبح الفارس ، يظهر من وراءها .

ومضى به إلى الجانب الغربي من المنزل ، وهناك كانت حديقة صغيرة تابعة للمنزل ، تسمى « الحديقة الخاصة » لأنها محجوبة عن الخارج بسور مرتفع تعلوه النباتات المتسلقة .

وحتى الممر المؤدي اليها كان حلزونياً متعرجاً يحف به السور المرتفع ذو النباتات المتسلقة .

وعندما يدخل الإنسان إلى هذه « الحديقة الخاصة » يحسد أنه في عزلة تامة عن العالم ، وأنه أصبح في عــــالم خاص جميل ، كله زهور وشذى وخضرة دائمة .

وعندما بلغا منتصف الحديقة ، أشـار ساروبت إلى المنزل الذي كان يمتد من الشمال إلى الجنوب أمــــا الجانب الغربي الضيق ، فقد كانت ثمة نافذة في الطابق الأول ، الذي يعلو الطابق الأرضي ، تـكاد النباتات المتسلقة تبلغ حافتها . وظهر أن زجاجها مغلف ، من الداخل ، بألواح خشبية .

فقال ساروبت مشيراً اليها :

– تلك هي النافذة ، إن الألواح الخشبية الداخليــة تخفيها من داخل الحجرة .

واشرأب الميجور بورتر بعنقه ، ثم قال ، وهو يحملق في زجـاج النافـذة :

– ها ! إنني لا أرى أكثر من لون حائل ، في أحد الألواح الزجاجية .. لا أكثر .

- لأنك شديد القرب من النافذة .. ولكن هناك مرتفعاً خالياً من الشجر ، في الغابة القريبة ، يمكنك منه أن تلقي نظرة على النافذة من بعيد .

ومضى مع بورتر إلى خارج الحديقة الخاصة ، ثم انعطف يساراً وتقدم في الطريق إلى الغابة .

وكان يقول في طريقه ، بحماس :

- لقد أنشأوا نافذة أخرى في الجانب الجنوبي من المنزل ، أي الجانب الذي كنا نجلس فيه منذ لحظات . ويلوح لي أن رتشارد سكوت وزوجته سينزلان في هذه الغرفة بالذات ، مما جعلني أمتنع عن الاستطراد بالكلام عن الشبح .

فقد خشيت ان تضطرب أعصاب مسز سكوت حين تعلم أنها تنام في غرفة مسكونة بشبح قتيل .

- آه .. فهمت ..

ونظر ساتروويت اليه بسرعة ، فأدرك من سمات الشرود البادية عليه ، أنه لم يسمع منه كلمة واحدة .

فاستطرد يقول كأنما يحدث نفسه :

- نعم . ما كان ينبغي ان تحضر إلى هذا البيت أبداً .

وكان الناس عادة يتحدثون هكذا مع ساتروويت باعتباره شخصية سلبية لا وزن لها في مشكلات الحياة .

ولكنه قال ، متجـــاوباً في الحديث ، وهو يظنه يتحدث عن مسز ستافورون :

- هل هذا رأيك ؟!

- لقد كنت مشتركاً في تلك الرحـــلة .. رتشارد وأنا وايريس ستافورون ، إنها إمرأة رائعة ، وصيادة بارعة .. فلماذا دعوها إلى هذه

الحفلة ؟!

فهز ساترويت كتفيه قائلاً:

– ربما لجهلهم بالحقيقة .

– سوف يحدث بعض الاضطراب، وينبغي ان نكون على حذر ومستعدين لبذل كل جهدنا كي تمر نهاية الأسبوع على خير .

– ولكن مسز ستافرون لا شك ؟

– إني أتحدث عن سكوت ، أرى ان مسز سكوت العروس الشابة يجب أن نهتم بأمرها إذا هي عرفت الحقيقة .

وبعد برهة صمت قال ساترويت :

– كيف التقى رتشارد سكوت بعروسه ؟

– في الشتاء الماضي : في مصر . واشتعل لهيب الحب بينهما سريعاً ، وتمت الخطبة في ٣ أسابيع ، والزواج في ٦ أسابيع .

– الواضح انها فتاة جذابة .

– إنها فعلاً جذابة وجميلة ، وهو يقدسها .. ولكن هذا لا يعني شيئاً .

وفجأة عاد يقول بلهجة من يحدث نفسه :

– اللعنة على كل شيء .. ما كان ينبغي ان تحضر !

وكانا قد وصلا عندئذ إلى المرتفع في الغابة ، فاستدار ساترويت وأشار إلى النافذة قائلا :

– أنظر !

ورغم شفق الغروب ، فقد كانت النافذة واضحة ، وكان يبدو أن وجه رجل يطل من وراء الزجاج ، وعلى رأسه قلنسوة فارس عليها ريشة طائر ، فقال بورتر :

– هذا عجيب .. عجيب جداً ، ماذا يحدث مثلا ، إذا تحطم هذا

اللوح الزجاجي ؟

فابتسم ساترويت قائلا :

– هذه إحدى الجوانب المدهشة في القصة ، إن لوح الزجاج هذا استبدل إحدى عشرة مرة ، وربما أكثر . وكانت آخر مرة منذ اثني عشر عاماً ، ولكن البقع التي يتكون منها شكل وجه الشبح لا تلبث ان تظهر ثانية ، وهي لا تظهر دفعة واحدة وإنما تنتشر انتشاراً تدريجياً حتى يتكون شكل الوجه والقلنسوة خلال شهرين عادة .

وللمرة الأولى لاح الاهتمام الشديد علىوجه الميجور بورتر ، فسرت في جسمه رعدة خفيفة وهو يقول :

– شيء عجيب ! وكم من الظواهر في الحياة ليس لها تعليل . لكن ما نفع وضع الواح الخشب وراء الزجاج إذن ؟!

– إنتشرت إشاعة بأن الغرفة منحوسة ، فقد كان ايفشام مقيما بها عندما طلق زوجته . وكان ستانلي وزوجته مقيمين بها عندما نزلا ضيفين على ايفشام فلم يلبث ستانلي ان هرب مع فتاة من بنات الليل .

فرفع بورتر حاجبيه في دهشة وقال:

– فهمت .. إن الخطر في الغرفة ليس على الحياة ، وإنما على الأخلاق ؟

فقال ساترويت لنفسه :

« ويقيم بها الآن سكوت وامرأته . ترى ماذا سيحدث ؟ »

وسارا في طريق العودة إلى المنزل صامتين ، كل منهما يسير في سكون على العشب الأخضر مستغرقاً في أفكاره .

وحينما كانا ينعطفان في الممر المؤدي إلى الحديقة الخاصة سمعا صوت ايريس ستافورن ينساب وهي تقول بحدة :

– ستندم على هذا .. نعم سأدعك تندم على هذا !

ورد سكوت بصوت خافت مضطرب غير مسموع .

ومرة اخرى ارتفع صوت ايريس ستافرون عنيفاً حاداً من قلب الحديقة الخاصة :

– الغيرة ؟ إنها تدفع بالإنسان إلى الجحيم .. إنها الجحيم نفســـه . فهي قد تدفع المرء إلى ارتكاب جريمة قتل . فكن على حــذر يا رتشارد . نعم ، كن على حذر .

وعند ئذ خرجت أمامهما من « الحديقة الخاصة »، ثم انحرفت عند منعطف المنزل ، دون أن تراهما ، وسارت بسرعة وخفــة ، وكأنما هي تجري خائفة من شيء .

وفكر ساترويت مرة أخرى في كلمات الليدي سينثيا . حقاً إن هذه المرأة خطيرة .

وشعر لأول مرة بذلك الإحساس الذي يجعله يتوقع حدوث مأساة في وقت قريب .

لكنه في ذلك المساء خجل من مشاعره المنطوية على الخوف والتشاؤم ، فقد بدا كل شيء طبيعياً لطيفاً .

فإيريس ستافرون لا يبدو عليها أي توتر عصبي وهي تتحــدث بطريقتها البسيطة الرقيقة ، وميورا سكوت بقيت كما هي حلوة جذابـــة ، لا أثر عليها لاضطراب او خوف . بل انها كانت تتحدث في مودة مع ايريس وكأنهما صديقتين . بل ان رتشارد سكوت نفسه ، كان يبدو مبتهجاً سعيداً .

أما مسز انكرتون ، فكانت هي الوحيدة ، التي تبدو عليها الهموم والقلـق .

فقالت لمستر ساترويت على انفراد في النهاية :

– لعلك ستتهمني بالحماقة والسخف ، ولكني أشعر بخوف شديد رغماً عني

وقد أرسلت إلى صانع الزجاج دون ان أخبر زوجي بالأمر .

- صانع الزجاج ؟

- نعم . ليضع لوحاً جديداً من الزجاج في تلك النافذة . إن زوجي نبيد فخور بقصة الشبح الذي يسكن منزله ، ولكني لا أشاركه هـذا الفخر ، ولذا فقد أرسلت لاستدعاء صانع الزجاج ليضع لوحاً جديداً نظيفاً من الزجاج .

- ولكنك نسيت ، او لعلك لا تعلمين ان شكل وجه الشبح يرتسم على اللوح بعد شهر او شهرين .

- إنني أتحدى هذا الوجه ، ولسوف أضع لوحاً جديداً من الزجاج كل شهر او كل أسبوع إذا لزم الأمر . إن ثمن هـذه الألواح لن يؤدي إلى إفلاسنا على كل حال .

فقال ساترويت لنفسه :

« والآن على شبح هذا الفارس ان يجد طريقة أخرى ليستطيع التغلب بها على قوة المال » .

وشاء القدر في تلك الليلة ان يسمع ساترويت حديثاً آخر

فبينما كان صاعداً إلى غرفته ، رأى الميجور بورتر ومسز ستافرتون جالسين في ركن البهو الكبير ، بالقرب من السلم ، يتبادلان الحديث ، وكانت هي تقول بصوتها الذهبي :

- لم أكن أعرف ان سكوت وعروسه من بين المدعوين ، ولو كنت أعرف لما حضرت . ولكني أؤكد لك يا عزيزي اني لن أهرب من هذا الموقف ما دمت قد حضرت ..

ومضى ساترويت في طريقه ، بعيداً عن مرمى السمع ، وهو يقول لنفسـه :

« ترى ، أهي صادقة في حديثها ؟ أحقاً لم تكن تعرف ان رتشارد

سكوت بين المدعوين؟ » .

وفي الصباح ، وفي ضوئه الصافي ، أحس انه بالغ في مخاوفه وأوهامه في الليلة السابقة .

ولا شك ان كل ما خامره كان ناتجاً من توتر أعصابه ، او لعل خمول الكبد عاوده مرة أخرى .

نعم .. انه الكبد . إن عليه ان يمضي للاستشفاء في كارلسباد في أول فرصة .

وعند الغروب إقترح على الميجور بورتر ان يتمشيا مرة اخرى في الغابة ، وأن يمضيا إلى المرتفع ليريا هل كانت مسز انكرتون صادقة في قولها انها ستغير اللوح الزجاجي في النافذة بآخر جديد ! ولكنه في الواقع كان يريد ان يستمتع برياضة المشي .

ومشى الاثنان ببطء في الغابة ، وكان الميجور بورتر كالمعتاد متحفظاً ، قليل الكلام .

أما ساتروبت ، فقد قال على سبيل المحادثة :

ـ لا يسعني إلا ان أشعر بأننا كنا واهمين ، حين توقعنا حدوث شيء خطير أمس . فالمعروف ان الناس عادة يكتمون مشاعرهم الخاصة في مثل هذه الظروف ، ويحاولون أن يحسنوا السلوك ، مع الداعين والمدعوين ..

فقال بورتر :

ـ لعلك تعني الناس المتحضرين .

ـ ماذا تقصد ؟

ـ أقصد ان الناس الذين عاشوا فترات طويلة خارج العالم المتحضر ، يرتدون احياناً إلى العالم الهمجي الذي تعودوا عليه

وبلغا المرتفع في الغابة ، وهناك رأيا وراء زجاج النافذة وجه الشبح ،

وكان هذه المرة أقرب ما يكون إلى محيا إنسان حي .

فقال ساتروويت :

– يبدو ان مسز انكرتون لم تجرؤ على تغيير اللوح .

– لا شك ان زوجها عارضها بشدة في هذا الشأن. إنه من الأشخاص الذين يفخرون بأشباح الأسر الأخرى . ولعله لم يشتري المنزل إلا لأنه مشهور بأن « الفارس الرقيب » يقيم فيه .

ثم أردف وهو ينظر إلى العشب المحيط به :

– ألم يخطر ببالك يوماً ان المدنية خطرة جداً .

فقال ساتروويت بدهشة :

– خطرة جداً !

– نعم ، لأنها خالية من صمامات الأمان لنفسي .

وفي طريق العودة قال ساتروويت للميجور :

– إني لا أفهم تماماً ماذا تعني يا ميجور !

فضحك بورتر وقال :

– أتظن اني أخرف بما لا أعرف يا مستر ساتروويت ؟ حسناً ، إن هناك أناساً يشعرون بقرب هبوب العواصف .. وهناك ، كما تعرف ، أناس يحسون بقرب وقوع أمور خطيرة . وأنا أشعر ان أموراً خطيرة ستقع الآن ، نعم ، يا مستر ساتروويت .. أموراً خطيرة جداً . ربما تحـــدث في أية لحظة .. حالاً .

وأمسك عن الكلام فجأة ، ووضع يده على ذراع المستر ساتروويت ، وفي اللحظات القليلة التالية ، فوجيء كل منهما بسماع طلقتين ناريين ، أعقبتهما صيحة إمرأة .

وهتف بورتر قائلا :

– يا إلهي ! هلم نسرع .

وانطلق يعـدو ، في الطريق إلى البيت ، والمستر ساتروبت خلفـه يلهث .

وفي لحظات كانا قد وصلا إلى الممر المؤدي إلى الحديقة الخاصة ، وفي الوقت نفسه كان رتشارد سكوت ومستر أنكرتون يقبلان من الجانب الآخر من المنزل نحو الحديقة .

وتوقف الرجال الأربعة أمام بعضهم البعض ، على الجانبين الأيسر والأيمن للحديقة الخاصة .

قال انكرتون وهو يشير بإصبعه إلى الحديقة :

— لقد صدر الصوت من .. منها .

وقال بورتر وهو يتقدمهم في المنعطف المؤدي إلى الحديقة :

— هلم نرى.

ولما بلغ مع أصحابه آخر منحنى في الممر المؤدي اليها ، توقف متسمراً في مكانه ، واختلس ساتروبت النظر من وراء كتفه ، بينما أرسل سكوت صيحة عالية .

كان ثمة ثلاثة أشخاص في قلب الحديقة الخاصة ؛ إثنان ، شـاب وشابة ، ملقيان بجوار المقعد الحجري ، والثالثة ، مسز ستافورن واقفة بجانب السياج ، تنظر بعينين ملؤهما الفزع ، إلى شيء في يدهـا اليمنى !.

وصاح الميجور بورتر:

— إيريس ! إيريس ، ما هذا الذي في يدك بحق السماء ؟

فنظرت اليهم في دهشة وذهول !.

ثم قالت في شيء من عدم الاهتمام :

— مسدس !

ثم أردفت قائلة بعد لحظة كأنها دهر :

- تناولته من أرضية الحديقة .

وتقدم مستر ساتروبت إلى حيث كان انكرتون وسكوت راكعين بجانب الجسدين .

وكان سكوت يهتف قائلا :

– أسرعوا بطلب طبيب . يجب أن يحضر حالاً !.

ولكن يد الموت كانت أسبق من الطبيب .. وهكذا ظل جسد الكابتن جمس الينسون مسجى على العشب بجوار جسد ميورا سكوت ، بلا حركة أو حياة .

وكان رتشارد سكوت هو الذي تولى فحص الجسدين ، وتأكد من موتهما .

وقد بدا واضحاً انه يتمتع بأعصاب حديدية ، وانه بعد صيحة الألم والدهشة الأولى ، إسترد زمام أعصابه بسرعة .

قال وهو يعيد وضع جسد إمرأته على العشب برفق :

– أصابتها الرصاصة من الخلف .. فقد نفذت من ظهرها إلى صدرها .

ولما فحص جيمي الينسون لقي ان الجرح في صدره ، وان الرصاصة أصابته من أمام واستقرت في جسمه .

فقال بورتر بحزم وهو يقترب منه :

– لا ينبغي ان يلمس أحد شيئاً ؛ فالواجب ان يجد البوليس كل شيء كما حدث .

وبرقت عينا رتشارد سكوت بنيران الغضب ، وهو ينظر إلى مستر ستافرتون ويقول :

– البوليس !

ثم تقدم نحوها ، ولكن بورتر إعترض سبيله ، وراح يتبادل معه

النظرات الحادة برهة .

ثم قال وهو يهز رأسه :

ـ لا ، يا رتشارد .. إن المظاهر تدل على انها هي .. ولكنك مخطىء في ظنونك !

ـ إذن لماذا ؟ لماذا كان المسدس في يدها ؟

وهنا قالت إيريس في لهجة الدفاع عن نفسها

ـ لقد تناولته من أرضية الحديقة !

وقال أنكرتون :

ـ البوليس !. يجب استدعاء البوليس فوراً .. ويجب ان يبقى أحدنا هنا

وتطوع ساترويت بأن يبقى في مكان الحادث ، حتى يأتي رجال البوليس .

وقبل المضيف هذا العرض ثم قال :

ـ يجب إبلاغ الأمر للسيدات .. نعم ، لليدي سينثيا ، ولزوجتي العزيزة .

وبقي ساترويت في الحديقة الخاصة ينظر إلى الجثتين ، ويقول لنفسه في أسف :

« مسكينة أنت أيتها الطفلة . فقد ذهبت في عمر الزهور ! »

وفيما هو يتأمل وجهها الصغير ، ونصف الابتسامة التي لا تزال باقية على ثغرها ، وشعرها الذهبي المشعث ، وأذنها الدقيقة الرقيقة ، لاحظ وجود بقعة من الدم على شحمة الأذن .

وأحس في أعماق نفسه بالرغبة في الاستنتاج والاستدلال ، كما يفعل رجال المباحث ، ومن ثم إستنتج ان هذه البقعة ناشئة من قرط كان في تلك الأذن .

نعم ، هذا صحيح ، لأنه رأى في الأذن الأخرى قرطاً صغيراً عبارة عن حبة لؤلؤ في مشبك ذهبي .

* * *

وقال مفتش البوليس ونكفيلد بعد ان سأل الجميع ، ثم جلس معهم في البهو الكبير :

– والآن يا ميجور بورتر ، أفهم انك كنت عائداً من الغابة مع مستر ساترويت عندما سمعتما طلقين ناريين ، ثم صيحة إمرأة ، فاندفعتما تجريان في الممر الملتوي المؤدي إلى الحديقة الخاصة من الناحية اليسرى للمنزل . أليس كذلك ؟

– تماماً . .

– ومعنى هذا انه لو كان أحد أراد الهرب من الحديقة الخاصة لألتقى بك وبالمستر ساتروبت ، أو بالمستر أنكرتون والمستر سكوت اللذين كانا مسرعين من الجهة اليمنى ، لأنه لا يوجد منفذ آخر ، للحديقة الخاصة .

– نعم يا سيدي المفتش ، هذا صحيح .

– حسناً جداً . وفي الوقت الذي كنتما فيه في الغابة ، كانت مسز ألكرتون وزوجها ، والليدى سينثيا جالسين في الممر الرئيسي المؤدي الى البيت ، وكان المستر سكوت جالساً في غرفة البليـاردو المؤدية إلى ذلك المم .

وفي الساعة السادسة وعشر دقائق ، خرجت مسز ستافورد من المنزل وتبادلت حديثاً قصيراً مع الجالسين في الممر ، ثم انعطفت عند ركن

المنزل في طريقها الى الحديقة الخاصة .

وبعد دقيقتين دوت الطلقات الناريان ، فاندفع مستر سكوت ومستر انكرتون في طريقهما الى الحديقة الخاصة من الناحية اليمنى للمنزل ، وفي نفس الوقت كنت انت يا ميجور بورتر مع مستر ساترويت تندفعان اليها من الجهة الأخرى ، اليسرى .

وهنا رأيتم جميعاً مسز ستافرتون واقفة والمسدس الذي انطلقت منه الرصاصتان في يدها اليمنى .

وكما أفهم ما حدث ، أقول انها أطلقت أولاً رصاصة على مسز سكوت في ظهرها وهي جالسة على المقعد الحجري ، فلما وثب الكابتن الينسون مندفعاً اليها ، أطلقت الرصاصة الثانية في صدره .

وقد فهمت انه كان ثمة علاقة عاطفية سابقة بينها وبين مستر سكوت .

فقال بورتر بصوت أجش كله التحدي :

– هذه أكذوبة لعينة .

وهز المفتش كتفيه بينما قال ساترويت :

– وما هي أقوال مسز ستافرتون ؟

– قالت انها ذهبت الى « الحديقة الخاصة » لتنفرد بنفسها برهة ، وفيما هي تمر عند آخر منعطف في مدخل الحديقة سمعت الطلقتين الناريين ، فأسرعت الى مكان الصوت ورأت المسدس على الأرض ، فتناولته ، ولم تر في الوقت نفسه أحداً داخل الحديقة او خارجاً منها ، وانما رأت فقط المصابين ملقيين بجوار المقعد الحجري .

هذه هي أقوالها التي أصرت على الادلاء بها رغم اني حذرتها من الادلاء بأي شيء الا بحضور محام لها .

وهنا قال الميجور بحزم واصرار .

– اذا كانت هذه هي أقوالها ، فهي صادقة .. فأنا أعرف ايريس

ستافرتون

– حسناً يا سيدي ، ان الوقت متسع لإثبات براءتها فيما بعد . أما الآن ، فإن علي واجباً ينبغي ان أؤديه .

وبحركة سريعة ، التفت الميجور بورتر إلى المستر ساتروبت ، ثم قال له :

– أنت ؟ ألا تستطيع ان تساعدها ؟ ألا يمكنك أن تقوم بشيء لإثبات براءتها ؟

وأحس ساتروبت بالزهو يملأ نفسه ، ولا غرو ، فهذا هو رجل معروف في الوسط الاجتماعي ، يلجأ اليه ، ويلتمس منه المساعدة .

وقبل ان يقول شيئاً ، أقبل رئيس الخدم تومبسون ، يحمل على صحفة من فضة ، بطاقة قدمها إلى سيده المستر انكرتون الذي كان متهالكاً في مقعده ثم قال :

– حاولت ان أعتذر للسيد بأنك مشغول الآن ، لكنه أصر على مقابلتك قائلاً ان بينك وبينه موعداً .

فنظر انكرتون إلى البطاقة ثم قال :

– مستر هارلي كوين ! آه ، نعم لقد حددت له موعداً لمقابلته بشأن إحدى اللوحات الفنية ، لكن الظروف الآن . .

وهنا هتف مستر ساتروبت قائلاً :

– أتقول هارلي كوين؟ ما أعجب هذا ! لقد طلبت المساعدة مني يا ميجور وأعتقد ان في مقدوري تحقيق طلبك . إن مســـتر كوين صديق لي ، وهو شخصية ممتازة في مثل هذه الظروف .

وقال المفتش في لهجة لا تخلو من تهكم :

– أظن ان أحداً كشف الغموض عن الجرائم المعقدة؟

– لا . ليس أحد الهواة ، وإنما هو رجل له قدرة عجيبة على ان يجعلكم

ترون بأعينكم ما كان يجب ان تروه ، وان تسمعو بآذانكم ما كان ينبغي أن تسمعوه . ولن يضيرنا شيء إذا نحن عرضنا عليه الخطوط الرئيسية للمأساة ثم نعرف ماذا سيقول لنا .

ونظر مستر انكرتون إلى المفتش الذي رفع عينيه الى السقف ساخراً ، ثم أومأ برأسه إلى رئيس الخدم تومبسون .

فغادر هذا البهو ، ثم عاد ومعه مستر كوين ، بقامته الطويلة ، وجسمه النحـل .

وقال مستر كوين ، بعـد ان صافح مستر انكرتون ، وحيا برأسـه الجميع :

– إني آسف لحضوري في هذا الوقت ، يا مستر انكوتون ، وأظن انه ينبغي ان نهمل الآن حديثنا البسيط عن اللوحة الزيتية . آه ، هوذا صديقي مستر ساترويت . أعتقد انك لا زلت مشغوفاً بما يجري على مسرح الحياة كعادتك

فقال ساترويت وهو ينظر إلى مستر كوين الذي كان يبتسم :

– مستر كوين ، اننا الآن في خضم إحدى مسرحيات الحياة . وإني وصديقي الميجور نريد ان نعرف رأيك في أحداثها .

وبعد ان ذكر له تفاصيل ما حدث ، هز مستر كوين رأسه وقال :

– هذه مأساة مؤلمة ! واعتقد ان انتفاء الباعث على القتل يجعلها شديدة الغموض

فحملق انكوتون في وجهه قائلا :

– انك لا تدرك حقيقة الموقف فقد سمعت مسز ستافرتون وهي تهدد مستر سكوت كانت شديدة الغيرة من زوجته ، والغيرة .

– إني اتفق معك . ان الغيرة عاطفة مدمرة ، ولكنك أخطأت فهم كلماتي ، اني كنت أعرب عن أسفي الشديد لمقتل الكابتن جمس اليندسون .

وهنا هتف الميجور قائلا

- انك على حق . ان مقتل الكابتن يثير الشك في المأساة كلها . فإذا كانت مسز ستافرتون تنوي قتل مسز سكوت ، لاستدرجتها بمفردها إلى مكان آخر .

نعم- . إننا نسير في الطريق الخطأ . وأنا أعتقد ان هناك وجهاً آخر للموضوع . وأنا اعترف ان هؤلاء الأشخاص الثلاثة ذهبوا الى الحديقة الخاصة قبل وقوع الحادث : جمس البنسون ، ومسز سكوت ، ثم مسز ستافرتون . .

ورأيي هو ان جمس البنسون أطلق النار على مسز سكوت ، ثم على نفسه ، ثم وقع المسدس من يده حيث تناولته مسز ستافرتون عند دخولها عقب الحادث مباشرة .

فهز المفتش رأسه وقال :

- هذا التعليل غير معقول . فلو ان الكابتن البنسون قتل نفسه ، لظهرت آثار البارود على ملابسه .

- لعله أطلق النار على نفسه من مسافة ذراع .

- ولماذا يفعل هذا ؟ لا معنى لذلك . وعدا هذا ، فما هو السبب ؟

- ربما فقد صوابه فجأة ؟

وصمت بورتر وهو يشعر ان حجته ازدادت ضعفاً حتى هذا الحد . لكنه لم يلبث ان قال المستر كوين في تحد :

- وأنت ما رأيك يا مستر كوين ؟

- اني لست ساحراً ، بل واست باحثاً جنائياً . ولكن يمكنني ان اقول اني أؤمن جداً بقيمة الانطباعات النفسية ، ففي اللحظات العصبية ، تنقش في الذهن لحظة معينة ، أو صورة معينة بعد ان تتلاشى جميع

الصور الأخرى .

ويبدو لي ان المستر ساترويت هو المراقب الوحيد ، المحايد ، في هـذه المأساة . فهل يمكن ان تعود بذاكرتك يا مستر ساترويت وتخبرنا عن أشد هذه اللحظات إثارة لنفسك ؟

هل كانت اللحظة التي سمعت فيها الطلقات النارية ، ام التي وقفت فيها تنظر الى الجسدين الهامدين، ام التي رأيت فيها مسز ستافرتون واقفة والمسدس في يدها ؟

وركز ساترويت عينيه في وجه مستر كوين كأنه تلميذ امام استاذ ، ثم قال ببطء :

ـ لا ، ان اللحظة التي انطبعت في نفسي هي عندما وقفت انظر الى مسز سكوت بوجهها الصغير ، وشعرها الذهبي المشعث ، و .. بقعة الدم على شحمة أذنها .

وما كاد يقول هذا حتى ادرك انه القى بما يشبـــه القنبلة ، واذا بمستر انكرتون يتمتم ببطء :

– دماء على اذنها ؟ نعم . اني اذكر هذا .

– واعتقد ان قرطها لا بد انـه انتزع من اذنها عندما سقطت عـلى الأرض .

فقال بورتر :

– كانت راقدة على جنبها الأيسر . فلا شك ان الدم كان على اذنها اليسرى ؟

ـ لا ، بل كان على شحمة اذنها اليمنى .

وتنحنح المفتش وقال وهو يمد يده بشيء بسيط :

انه المشبك الذهبي للقرط .

ـ لقد عثرت على هذا في العشب .

فصاح بورتر قائلا

ـ يا الهي ! لا يمكن ان يتحطم القرط هكذا بمجرد سقوطها على الأرض . الواضح انه انتزع من شحمة أذنها عنوة ؟

ـ نعم ، لا شك في هذا ، ولا شك ان الرصاصة هي التي حطمت القرط ، وجرحت الأذن .

وهنا قال المفتش :

ـ لم تنطلق غير رصاصتين فقط . ولا يعقل ان تجرح رصاصة الاذن ثم ترتد لتنفذ من ظهرها . فإذا افترضنا ان احدى الرصاصتين جرحت الاذن وحطمت القرط ، فإنه لا يمكن ان تقتل الكابتن الينسون في الوقت ذاته مـا لم يكن واقفاً امامها مباشرة وجد قريب منها لا .. لا .. هذا لا يمكن الا اذا كانت ..

وصمت المفتش فجأة ..

ـ الا اذا كانت بين ذراعيه ! حسناً ! لماذا لا ؟!

وتبادل الجميع نظرات الدهشة ذلك ان هذا الاحتمال لم يكن يخطر ببال احدهم .

فقال مستر انكرتون ·

ـ لكن الكابتن الينسون لا يكاد يعرف مسز سكوت .

وقال مستر ساترويت لنفسه :

« من يدري ؟ لعلهما كانا يعرفان بعضهما البعض دون ان نعلم ، فقـد قالت الليدي سينثيا ان الكابتن الينسون كان لطيفاً معهـا زيارتها لمصر في الشتاء الماضي .

والتفت ساتروويت الى بورتر وقال له :

ـ اخبرتني ان مسـتر سكوت تعرف بزوجتـه في مصر ، في القاهرة ، في الشتـاء الماضي ! فلعل الينسون تعرف عليها ايضاً في

ذلك الحين .

فقال انكرتون :

ـ ولكن كان يبدو عليهما هنا انهما لا يعرفان بعضهما البعض !

ـ لعلهما كانا يتظاهران بهذا لغرض معين .

فقال مستر كوين للمستر انكرتون :

ـ أترى ماذا اوضح لنا مستر ساترويت بملاحظته الدقيقة ؟ والآن جاء دورك يا مستر انكرتون

ـ ماذا تعني ؟

ـ اعني اني لاحظت انك كنت مستغرقاً في أفكارك ، عندما دخلت هذا البهو ، ولا بأس ان تخبرنا فيم كنت تفكر ، حتى لو لم يكن له علاقة بالمأساة .

فتردد انكرتون برهة ثم قال :

ـ الواقع اني كنت افكر في موضوع خرافي ، لا علاقة له بالحادثة ، فقد اخبرتني زوجتي ، انها وضعت لوحاً زجاجياً جديداً في نافـــذة الشبح .. واني لأشعر ، ان تغيير لوح الزجاج ، هو الذي جلب هـذا النحس !

ولم يعلم انكرتون لماذا حملق في وجهه كل من الميجور بورتر ومستر ساتروبت الذي قال :

ـ أتقول ان زوجتك وضعت لوح زجاج جديـد في نافذة الشبح ، فعلا ؟

ـ نعم . في صباح هذا اليوم .

وهتف الميجور بورتر قائلا :

ـ يا الهي ! لقد بدأت افهم الآن ! ان هذه الغرفة مكسوة الجدران بألواح الخشب ، وليس بالورق الملون .

ـ نعم ، لكن ما علاقة هذا بالموضوع ؟!

ولكن بورتر اندفع خارجاً من البهو والجميع يتبعونه ، ثم صعد فوراً الى غرفة الشبح ، التي كان يقيم فيها سكوت وزوجته .

وكانت غرفة جميلة جدرانها مكسوة بألواح مصقولة في لون الكريم ، وتحسس الميجور الألواح بيده وهو يقول انه واثق من وجود مفتاح لباب سري .

وفجأة سمع الجميع طقطقة خفيفة . واذا جزء من الألواح يتحرك ويكشف عن الألواح الحائلة اللون في نافذة الشبح ، وكان بينها لوح جديد نظيف .

وانحنى بورتر فجأة ثم التقط من على الأرض ريشة نعام .

ثم نظر الى المستر كوين ، وبادله هذا النظر ، وهو يومىء اليه برأسه .

وعبر بورتر الغرفة الى خزانة الملابس ، حيث وجد فيها عدداً من قبعات مسز سكوت ، فتناول منها قبعة عريضة الحافة مزينة بالريش

وبدأ مستر كوين يتحدث بهدوء

ـ لنفرض ان هناك رجلا شديدة الغيرة بطبعه . رجلا سبق ان اقام في هذا البيت اياماً او اسابيع ، يعرف سر الباب السري الذي يخفي نافذة الشبح من داخل الغرفة

ولنفرض انه أراد ان يتسلى ، ففتح هذا الباب ونظر من وراء زجاج نافذة الشبح إلى الحديقة الخاصة ، فرأى زوجته بين ذراعي شاب من الضيوف فجن جنونه من فرط الغيرة ، ولكن ماذا يفعل ؟

لقد ومضت بباله فكرة .

إنه يذهب إلى خزانة الملابس ، ويأخذ منها قبعة ذات حافة عريضة مزينة بالريش ، وكان شفق المساء يتجمع في تلك اللحظة ، وقد تذكر

الأسطورة التي تدور حول شبح النافذة، ومن ثم اطمأن إلى ان أي شخص يراه من الخارج ، سيحسبه شبح « الفارس الرقيب » .

وهكذا راح يراقب الزوجة والشاب ، حتى إذا رآهما متعانقين أطلق مسدسه عليهما ، وقتلهما برصاصة واحدة نفذت من الزوجة واستقرت في صدر الشاب .

ولكنه أطلق رصاصة أخرى أطاحت بقرط الزوجة . والمعروف انه بارع في إطلاق النار وإصابة الهدف لأنه صياد مشهور . ثم القى بالمسدس من النافذة إلى الحديقة الخاصة ، واندفع عائداً إلى قاعة البلياردو ، ومنها إلى الحديقة مع مستر أنكرتون .

وهنا قال بورتر في دهشة :

ـ ولكنه تركها .. ترك مسز ستافرتون معرضة للاتهام . لقد وقف ساكناً ، وتركها تتحمل تهمة ارتكاب جريمة هي بريئة منها ، فلماذا . لماذا !

فقال مستر كوين :

ـ أعتقد اني أعرف لماذا ؟ أعرف بالاستدلال والاستنتاج . فليس لي مفر من هذا . أعتقد ان رتشارد سكوت كان يحب ايريس ستافرتون إلى حد الجنون . وقد بلغ من قوة حبه لها ان عاطفته اشتعلت حين رآها بعد فراق سنوات .

لقد اشتعلت عواطفه بالغيرة المجنونة هذه المرة . ذلك ان إيريس ظنت يوماً أنها أحبته ، ولكنها بعد ان عادت من رحلتها في قلب افريقيا أيقنت أنها أحبت شخصاً آخر .. الشخص الأفضل والأكثر اتزاناً ..

قال بورتر في ذهول :

ـ الشخص الأفضل ؟ هل تعني ؟

فابتسم كوين وقال :

- أعنيك أنت .
ثم صمت برهة قبل ان يردف قائلا :
- لو كنت في موضعك ، لذهبت اليها الآن .. وأخذتها بين ذراعي !.
فرد بورتر بحزم :
- سوف أذهب حالاً .
ثم استدار وانطلق مسرعاً .. إلى ايريس !

- ٣ -

علامة في السماء

أخذ القاضي ، يلخص القضية للمحلفين ، بعد الانتهاء من نظرها بقوله :

« والآن ، أيها السادة ، أوشكت أن أفرغ مما أريد ان أقوله لكم . فأمامكم الأدلة التي يمكنكم ان تعرفوا ما إذا كان هذا المتهم هو القاتل الحقيقي لفيفيان بارنابي . .

« فقد عرفتم من أقوال الخدم الوقت الذي أطلقت فيه الرصاصة . وقد أجمعوا الرأي على هذا الوقت . وعرفتم أمر الخطاب الذي أرسلته فيفيان بارنابي إلى المتهم في صباح اليوم الذي قتلت فيه ، وهو يوم الجمعة الثالث عشر من شهر سبتمبر وقد اعترف المتهم بهذا الخطاب . وعرفتم كيف أنكر المتهم ذهابه إلى منزل المجني عليها في ذلك اليوم ، في ديرنج هيل ، ولكنه لم يلبث ان اضطر للاعتراف بهذه الزيارة ، أمام الأدلة التي قدمها البوليس .

ولا تقوم هذه القضية على أدلة مادية ملموسة ، ومن ثم عليكم أن

تصدروا حكمكم على أساس الدافع على القتل ، والوسائل ، والفرصة التي أغرت بارتكاب الجريمة ، وقد أقام محامي المتهم دفاعه على أساس أن شخصاً غريباً دخل غرفة الموسيقى بعد خروج المتهم منها ، وأطلق الرصاص على فيفيان بارنابي من نفس البندقية التي قال المتهم أنه ، المصادفة ، نسيها وراءه .

« وقد سمعتم السبب الذي جعل المتهم يستغرق نصف ساعة في العودة إلى منزله ! فإذا أبيتم ان تصدقوا كلامه ، واقتنعتم اقتناعاً لا يقبل أدنى شك ، أن المتهم أطلق ، عن عمد وسبق إصرار ، بندقيته من مسافة قصيرة على رأس فيفيان بارنابي قاصداً قتلها ، وذلك في يوم الجمعة الثالث عشر من شهر سبتمبر ، فإن عليكم ، أيها السادة ، أن تصدروا حكمكم بالإدانة .

« أما إذا خامرتكم شكوك لها ما يبررها ، فإن واجبكم يقتضي إطلاق سراح المتهم .

« وأنا الآن أطلب منكم ان تجتمعوا في غرفتكم ، وان تتفقوا على الحكم ، وان تخبروني به » .

وغاب المحلفون في غرفتهم نصف ساعة ، ثم عادوا وأصدروا الحكم الذي كان كل من في القاعة يتنبأ به وهو :

« إدانة المتهم » .

وانصرف مستر ساترويت من المحكمة على مضض وهو يفكر في هذا الحكم بوجه مقطب . لو انها كانت مجرد قضية جريمة قتل من النوع الذي لا يثير اهتمامه عادة ، لما فكر في الذهاب إلى المحكمة ، ولكن هذه القضية القضية التي سميت قضية « وايلد » كانت تختلف عن مثيلاتها .

فالمعروف ان الشاب مارتن وايلد من النوع الذي يمكن أن يقال عنه انه مهذب أو جنتلمان .

وكانت الضحية او المجني عليها شابة حسناء ، زوجة السير جورج بارتابي وهي معروفة في الوسط الراقي .

كان يفكر في هذا كله وهو يتجه نحو شارع هولبورن ، ومنه إلى شبكة من الشوارع المؤدية إلى حي سوهو .

وفي أحد شوارع هذا الحي ، دخل مطعماً صغيراً لا يتردد عليه إلا الطبقة الثرية بسبب ارتفاع مأكولاته . وكان جو المطعم من الداخل هادئاً ساكناً والضوء خافتاً ، كأنه محراب في معبد . أما اسم هذا المطعم فهـــو آرليكشينو

ومضى ساترويت ، وهو لا يزال يفكر ، في طريقه داخل المطعم الى المائدة التي تعود الجلوس اليها في احد الأركان .

ولكنه فوجيء بوجود شخص آخر جالس اليها ، فأراد ان يتراجع ، لكن هذا الشخص استدار اليه فجأة .

وإذا بساترويت يقول :

– ليحفظني الله ! انه مستر كوين !!

وازداد انفعال مستر ساترويت ، وهـو يرى أمامه تلك الشخصية الخفية العجيبة ، التي تنقله ، عند الأحـداث الهامة ، من دور المتفرج على مسرح الحياة .. الى دور الممثل فوق ذلك المسرح نفسه .

فجلس مبتهجاً الى نفس المائدة .

وبعد ان احضر الخدم طلباتهما ، قال :

– قد اتيت حالاً من محكمة اولد بيلي . إنها قضية مؤلمة .

– لقد قرر المحلفون إدانته !!

– نعم . بعد نصف ساعة من تبادل الرأي .

– بناء على الأدلة المقدمة اليوم ! اليس كذلك ؟

– ومع ذلك !.

ولما تردد ساترويت برهة ، في إتمام كلامه .. أكمله مستر كوين قائلا :

– ومع ذلك ، فأنت في جانب المتهم ؟ اليس هذا ما أردت ان تقوله ؟

– أظن ذلك . فإن مارتن وايلد شاب لطيف وسيم ، لا يكاد يخطر ببال احد انه يرتكب جريمة كتلك . ومع ذلك فكم من شبان ظرفاء ارتكبوا من الجرائم ما يملأ القلوب بالفزع .

– والرأي الشائع عنـــه انه اراد ان يتخلص من عشيقته لكي يتزوج خطيبته !

– نعم ولكن الأدلة.

– أوه ! اني لم احضر المحاكمة يا مستر ســـاترويت . كما اني لا أعرف عن الحياة الخاصـــة للمجني عليها ولزوجها والمتهم . ولكني اعرف انك ، يا مستر ساترويت ، تعرف الشيء الكثير عن تلك الحياة . هلا اخبرتني بما تعرف ؟

ومرة اخرى ، احس ساترويت بالزهو ، وهو يجد نفسه يؤدي دوراً رئيسا في احدى مسرحيات الحياة .

ومن ثم راح يسرد معلوماته عن فيفيان بارنابي ، زوجة السير جورج بارنابي ، الشابة الحسناء ، وعن علاقتها بالشاب مارتن وايلد ، وعن خطيبته سيلفيا ديل المقيمة في قرية قريبة تسمى ديرنج فيل .

وقد بدأ حديثه عن الحياة في قصر ديرنج هيل الذي يمتلكه السير جورج بارنابي ، فقال :

ان الرجل ، صاحب القصر كان في خريف العمر ، بخيلا ، موفور الثراء ، شديد الفخر بثروته ، كثير الاهتمام بالتفاهات ، فهو مثلا قد تعود دائماً ان يدفع اجور الخدم في صباح يوم الثلاثاء من كل اسبوع ، ويملأ ساعات

القصر بنفسه ويضبطها بعد ظهر يوم الجمعة من كل اسبوع ،ولا ينسى ان يغلق باب القصر الخارجي بنفسه كل ليلة . انه رجل حريص دقيق ، كثير الاهتمام بالصغائر .

وانتقل ساترويت من الحديث عن السير جورج بارنابي الى الحديث عن زوجته الليدي بارنابي ، وهنا كان حديثه أكثر رقة .

قال انه رآها مرة واحدة ، ولكنه شعر ، في هذه المرة أنها ، على جمالها الفائق ، كانت حزينة السمات ، غاضبة النفس ، ساخطة على حظها في الحياة .

- هل كانت تكره زوجها ؟

- نعم . أشد الكراهية . تزوجته قبل أن تعرف شيئاً عن مبلغ بخله وتقتيره وحقارة نفسه . وقد ندمت بعد ذلك ، ولكنها لم تدر ماذا تفعل ، فقد كانت فقيرة ، لا تملك شيئاً إلا ما تظفر به من زوجها ، وكان حريصاً جداً في منحها ما تريد من مال . وكانت هي شديدة الطمع مشغوفة بترف الحياة .

وتابع ساترويت يقول :

- ولم أر مارتن وايلد قبل المحاكمة . ولكني سمعت عنه ، كان يمتلك مزرعة صغيرة لا تبعد عن قصر ديرنج هيل غير ميل واحد .

والتقت به ذات يوم ، أعني الليدي بارنابي ، فرأت فيه وسيلة للخلاص من زوجها ، فتعلقت به بعنف كما يتعلق الغريق بطوق النجاة .

حسناً ، لم يكن ثمة غير نهاية واحدة لعلاقة كهذه . ونحن نعرف الآن هذه النهاية .

لقد كان هو يحتفظ بخطاباتها اليه بينما كانت هي تمزق خطاباته اليها . ومن نصوص خطاباتها فهمنا أن حرارة حبه لها بدأت تهدأ وتبرد في الأسابيع الأخيرة ، وقد اعترف هو بذلك قائلاً انه كان خاطباً لفتاة

جميلة لطيفة إبنة طبيب في قرية ديرنج فيل المجاورة . وقد شاهدتها في المحكمة شقراء ، هادئة السمت ، رزينة ومخلصة . .

نعم ، كان الاخلاص ، لمارتن وايلد ، أهم الصفات التي لفتت الأنظار اليها .

وتوقف ساترويت برهة ، ونظر إلى مستر كوين كأنما يلتمس منه التشجيع ليستمر في حديثه .

فلما رآه يبتسم تابع كلامه :

– لعلك قرأت رسالة الليدي الأخـيرة إلى وايلد ، بعد ان نشرتها الصحف . إنها الرسالة المكتوبة في صباح يوم الجمعة ، الثـالث عشر من شهر سبتمبر ، وكانت مفعمة بألوان من اللوم والعتاب والتهديدات الخفية ، وقد اختتمت بقولها :

« إني أرجوك وأضرع اليك ، ان تأتي الليلة حوالي الساعة ٦ مساء ، فسوف أترك الباب الجانبي مفتوحاً لك حتى لا يعرف احد انك حضرت إلي وسأكون في غرفة الموسيقى »

وقد أرسلت هذا الخطاب بواسطة أحد الخدم .

وتوقف ساترويت برهة قبل ان يستطرد قائلاً :

– وعندما قبض عليه ، أنكر مارتن وايلد ، في اول الأمر ، انه زارها في الموعد المحدد . ولكنه اضطر للاعتراف أمام الأدلة التي عـثر عليها البوليس .

فقد قال انه أخذ بندقيته وخرج للرياضة والصيد في الغابات المجاورة ، ولكن رجال البوليس قدموا اليه صور بصمات أصابعه على خشب الباب الجانبي ، وعلى إحدى كأسي الكوكتيل الموجودتين فوق المائدة بغرفـة الموسيقى .

وهكذا اعترف انه زار الليدي بارنابي ، وكانت زيارة عاصفة تبادلا

فيها اللوم والاتهامات بالخيانة والغدر ، واخيراً استطاع ان يهدىء ثائرتها وقد أقسم انه نسي بندقيته مرتكزة على جدار بالقرب من الباب الخارجي وانه ترك الليدي على قيد الحياة .

وكانت الساعة قد تجاوزت السادسة والربع بدقيقة او دقيقتين ، ومضى إلى بيته فوراً ، هكذا قال !

ولكن الأدلة أثبتت انه وصل الى بيته في السابعة إلا ربعاً ، وكما قلت الآن ، لم تكن المسافة تزيد عن ميل ، أي لا تحتاج إلى نصف ساعة لقطعها .. أمـا عن قوله انه نسي بندقيته ، فقد أبى أحد أن يصدقه .

– ومع ذلك ؟

– ومع ذلك فليس في هذا أية غرابة ، من وجهة نظري ، فإن الإنسان عادة يكون في حالة اضطراب نفسي شديد بعد مقابلة عاصفة كالتي حدثت بين الليدي بارنابي ومارتن وايلد .

فأية غرابة في ان ينسي أي شيء وهو منصرف بعد مقابلة كهذه في الطريق إلى بيته ؟

وصمت ساترويت برهة أخرى قبل ان يردف قائلا :

– ولكن المهم ليس هذا ، لأن المرحلة التالية من الحادث واضحة . فقد سمع صوت الطلقات النارية في تمام الساعة السادسة والثلث . سمعه الخدم ، جميعاً ، الطاهية ومساعدتها ورئيس الخدم ، وخادمة القصر ، والخادمة الخاصة لليدي بارنابي .. لقد هرعوا جميعاً الى غرفة الموسيقى حيث رأوها مكومة على مقعدها جثة هامدة ، لأن الطلقات النارية أطلقت عليها من قرب ، ومن خلف رأسها بحيث نفذت من جمجمتها .

ومرة اخرى توقف ساترويت عن الكلام .

فقال مستر كوين :

- لقد أدلى الخدم بشهاداتهم طبعاً !

- نعم .. وكانت شهادة كل منهم ، مطابقة تماماً ، لشهادة الباقين .

- ألم يشذ أحد عنهم ، أبداً ؟

- أعتقد ان خادمة البيت أدلت بشهادتها في التحقيقات الأولية ، ثم سافرت إلى كندا ، فلم تحضر المحاكمة .

- آه ، فهمت !

فنظر ساترويت بسرعة إلى وجه كوين وقد احس ان في لهجته وهو ينطق بالكلمة الأخيرة معنى خاصاً .

فقال متحدياً :

- ولماذا لا تسافر ؟

وبعد ان هز كتفيه ، قال مستر كوين :

- ولماذا سافرت ؟

وهنا عاد ساترويت إلى حديثه عن القضية قائلا :

- ولم يكن ثمة شك فيمن أطلق الرصاص ، ولكن الخدم لم يعرفوا كيف يتصرفون بسرعة . إذ انه لم يكن بالبيت من يولى إصدار الأمر ، وهكذا مرت لحظات قبل ان يفكروا في طلب رجال البوليس تليفونياً لكنهم وجدوا التليفون معطلا عن العمل .

- اوه ! كان التليفون معطلا !

- نعم ، لا يدري أحد لماذا ؟ لأن الوفاة كانت سريعة ، فلم يكن ثمة أمل بانقاذ المجني عليها باستدعاء الطبيب ، فلماذا عطل الجاني التلفون إذا كان العطل مقصوداً ؟

فلم يقل مستر كوين شيئاً ..

فتابع ساترويت يقول :

ــ ولم يكن هناك أحد ابداً لا يعتقد تماماً ان مارتن وايلد هو الجاني فباعترافه أثبت انه غادر القصر ، بعد دقيقة او إثنتين ، من السادسة والربع مساء ، وقد سمع الخدم الطلقات النارية ، في الساعة السادسة والثلث تماماً .

ومعنى هذا انه كان قريباً من البيت في الدقائق الخمس التي سبقت سماع الخدم للطلقات النارية .

فمن الذي أطلق النار غيره ؟!

لقد ثبت ان السير جورج بارنابي كان يلعب البريدج في منزل صديق يبعد عن منزله ببضعة منازل وقد انصرف من منزل صديقه في تمام السادسة والنصف ، حيث التقى به أحد خدمه عند بوابة القصر ، وأخبره بالنبأ .

وليس ثمة اي شك في هذا . أما هنري تومسون سكرتير السير جورج ، فقد كان في لندن في ذلك اليوم ، وكان مشتركاً في اجتماع خاص ، بشأن بعض الأعمال في الوقت الذي أطلقت فيه الرصاصات على الليدي بارنابي .

وهناك سيلفيا ديل ، خطيبة مارتن وايلد ، وقد ثبت انه لا شأن لها بالجريمة ، لأنها كانت عندئذ في محطة قرية ديرنج فيل تودع صديقة لها استقلت قطار السادسة وثمان وعشرين دقيقة الذاهب الى لندن . ولم يبق بعد ذلك غير الخدم .

ولكن ما هي البواعث التي تدفع أحدهم الى قتل الليدي بارنابي ؟ ومع هذا فقد هرعوا جميعاً ، دون استثناء ، إلى غرفة المجني عليها عندما سمعوا الطلقات النارية ، وعلى هذا لم يبق هناك أدنى شك في ان مارتن وايلد هو الجاني .

ورغم هذا ، كان صوت مستر ساترويت يدل على انه غير مقتنع

بما يقول .

ومرت فترة من الصمت ، أخذ الرجلان خلالها يتناولان الطعام ، وكل منهما مستغرق في تفكيره .

وفجأة وضع ساتروبت الشوكة والسكين من يديه ، وقال :

– كيف يكون الحال ، إذا ثبت ان الشـــاب بريء بعد تنفيذ حكم الاعدام فيه ؟

فهز مستر كوين كتفيه .

فقال ساتروبت :

– ولكن .. لمـــاذا ، كما قلت ، رحلت خادمة القصر . الى كندا ؟!

– يمكنك ان تعرف لماذا يا مستر ساترويت ، بل يمكنك ان تعرف أي مكان في كندا اقامت فيه .

- اعتقد ذلك . فلا شك ان رئيس خدم القصر يعرف ، او سكرتير السير جورج .

– لكن ما شأني في ذلك كله ؟!

وبعد برهة صمت أردف قائلا في تردد :

- ان ذاك الشاب سيموت على حبل المشنقة بعد ثلاثة أسابيع ، على الأكثر .

– أوه . اني أعرف ماذا تعني ؟ انك تعني اذا كنت ارتاب في انه لم يقتل المجني عليها ، فمن واجبي ان اسعى كل جهد ممكن ، لإثبات براءته . ولكنك اذا عرفت مكان الخادمة في كندا ، فان ذاك يقتضي ذهابي اليها .

– ولماذا لا تسافر ؟ انك رجل موفور الثراء ، وخال تماماً من أعباء الأسرة ومسؤولياتها ، وكندا بلاد جميلة جديرة بالسفر اليها لمدة اسبوع ،

او أكثر .

ثم لا تنس انك بهذه السفرة سوف تنتقل من مقاعد المتفرجين على المأساة الى قلب المأساة نفسها .

فمن يدري فلعلك تستطيع ان تجد في اقوال تلك الخادمة ما يثبت براءة ذلك الشاب المسكين .

وفكر ساتروبت برهة ..

ثم قال :

– وإذا عدت من كندا فأين يمكن ان اجدك ؟

– ليس لي مقر ثابت ، في الوقت الحاضر ؛ ولكني أتردد كثيراً على هذا المطعم .. فإذا كنت تتردد عليه مثلي ؛ فلا شك ؛ اننا سنلتقي حتماً .

واشتد انفعال مستر ساتروبت .

وسرعان ما هرع إلى مكتب شركة كوك حيث استفسر عن مواعيد البواخر التي ستبحر إلى كندا .

ثم اتصل تليفونياً بقصر السير جورج بارنابي ، حيث رد عليه رئيس الخدم فقال له :

– إن إسمي ساتروبت ، وأتحدث من .. من مكتب توكيلات قضائية . وأحب ان أعرف بعض التفصيلات عن الخادمة الشابة التي كانت تعمل في القصر إلى عهد قريب .

– أتعني لويزا ؟ لويزا بولارد ؟

– نعم . نعم !

– أخشى يا سيدي ان أعجز عن تقديم أية خدمة لك في هذا الشأن . فقد رحلت إلى كندا منذ ثلاثة أشهر .

– هل يمكنك ان تذكر لي عنوانها هناك ؟

– لا أظن ... كل ما أعرفه انها تقيم في منطقة جبلية ذات اسم اسكتلندي آه ، اسم المنطقة « بانف » .

وهي ، أي لويزا ، لم تكتب الينا أو إلى أحد رسالة ، كما انها لم تخبرنا بعنوانها الكامل .

ووضع ساتروبت السماعة بعد ان شكره ، وأحس ان روح المغـــامرة تزداد عنفاً في أعماق نفسه ، ومن ثم قرر الذهاب الى منطقة « بانف » هذه فإذا كانت لويزا هنـاك ، فلن يدخر وسعـاً في البحث عنها ، والوصول اليها .

ولشد ما كانت دهشته حين وجد نفســـه يستمتع بالرحلة البحرية إلى كندا

وفي منطقة « بانف » عثر بسهولة على محل إقامة لويزا بولارد ، وإذا هـو يقف أمامها بعد يوم واحد من وصوله إلى المنطقة .

كانت إمرأة في نحو الخامسة والثلاثين من عمرها ، طويلة القـــامة ، قوية الجسم ، تنم عيناها على البراءة والوفاء ، وعن شيء من الغباء .

وصدقت بسرعة ما قاله لها عن رغبته في جمع بعض المعلومات الخاصة بمأساة ديرنج هيل .

وقد قالت في هذا الشأن :

– قرأت في الصحف ان الحـكم صدر بادانته . يا للمسكين ، إنه لأمر محزن حقاً .

ورغم أنها كانت واثقة من إدانته أيضاً إلا انها قالت :

– كل إنسان معرض لارتكاب جريمة كهذه ، وأنا لا أحب التحدث عن الموتى بسوء ، ولكني أعتقد ان الليدي بارنابي هي التي دفعته إلى ارتكاب مثل هذه الجريمة !

حسناً ، فقد نال كل منهما عقابه !

فهذه شريعة السماء ، وكنت أعرف ان شيئاً خطيراً سوف يحدث في تلك الليلة . وقد حصل فعلاً .

– وكيف عرفت ؟

– كنت في غرفتي بأعلى القصر ، أستبدل ملابسي ، وحانت مني نظرة خارج النافذة فرأيت القطار يمر ، تاركاً وراءه سحابة من الدخان ترتفع إلى السماء ، وصدقني إذا قلت ان تلك السحابة ظلت تتشكل حتى تكونت منها صورة يد معقوفة الأصابع ، كأنها يد القدر ، تريد ان تبطش بشيء ! .

وأحسست بالخوف وأنا أقول لنفسي : « هذه علامة في السماء . لا بد ان شيئاً خطيراً سوف يحدث ! »

وفي تلك اللحظة نفسها سمعت الطلقات النارية داخل القصر ، فقلت : « آه ! لقد حصل الأمر الخطير » .

فاندفعت من غرفتي ، وانضممت إلى زملائي المجتمعين في القاعة الكبرى ، ودخلنا معاً إلى غرفة الموسيقى ، حيث رأينا الليدي بارنابي مقتولة بطلقات نارية في رأسها ، والدماء متناثرة في كل مكان ..

منظر رهيب ! وتحدثت .. نعم .. أخبرت السير جورج بارنابي ، كيف توقعت حصول شيء خطير كهذا ، حين رأيت تلك العلامة في السماء .. و ..

وظلت تتحدث في موضوعات مختلفة ، وساوثويت ينصت اليها في صبر ، ويحاول ان يردها ، الى الحديث عن المأساة ، كلما ابتعدت عنه . وأخيراً أدرك انه ظفر منها بكل ما يمكن من معلومات ، وان حديثها ينم على الصدق وسلامة الطوية .

ولما فكر فيما سمعه منها ، وجد انه لم يظفر بشيء له أهمية خاصة ، ولكن الشيء الوحيد الذي أثار اهتمامه هو ضخامة المرتب الذي جعلها تقبل العمل

في كندا والرحيل في أسرع وقت من انجلترا .

فقد ذكرت له ان الذي قام باجراءات ترحيلها على وجه السرعة ، مدير مكتب تخديم يدعى مستر ونمان ، وهو يقيم في كندا ، وقد نبهها من كتابة أية رسالة إلى زميلاتها في انجلترا « حتى لا توقع نفسها في مشكلات ، مع إدارة الهجرة » .

وقد تقبلت النصيحة منه بلا تساؤل او ارتياب .

وقرر ساتروويت ان يزور ذلك المدعو ونمان ، ولم يجد مشقة في العثور عليه او في تبادل الحديث معه .

وقد ذكر له مستر ونمان انه زار انجلترا في عام ما ، وان مستر تومبسون سكرتير السير جورج أدى له بعض الخدمات .

وقد شاء أن يرد له الجميل حين كتب اليه مستر تومبسون منذ ثلاثة أشهر يرجوه أن يجد عملاً في كندا للخادمة لويزا بولارد .

وقال له ان السير جورج سيضع بين يديه مبلغاً كبيراً من المال ليضيف منه كل أسبوع جزءاً على مرتب لويزا ، فيصبح مرتباً كبيراً يغريها على البقاء في كندا .

وأردف المستر ونمان قائلاً ، وهو يتراخى في مقعده الوثير ، باسماً :

– إنها المشكلة المعتادة طبعاً ، علاقة سريعة بين السيد والخادمة ، ثم يفيق السيد من نزوته ويسعى إلى ترحيل الخادمة إلى مكان بعيد ، تجنباً للفضيحة .

لكن ساتروويت كان يعرف ان هناك شيئاً آخر ، أهم وأخطر ، جعل السير جورج بارنابي ، او سكرتيره تومبسون ، يعمل على إبعاد لويزا من انجلترا بسرعة .

فلماذا ؟ وما هو السبب الخطير ؟

وعاد الى انجلترا ، وهو يحاول معرفة ذاك السبب بالاستدلالات العقلية والتفكير المنطقي

* * *

ومضى إلى مطعم آرليكشينو ، ذات ليلة ، وهو يشعر انه عاد من كندا فاشلا .

ولم يكن يتوقع ان يلتقي ، من المرة الأولى ، بالمستر كوين جالساً كالمعتاد إلى المائدة في ركن القاعة .

ولكنه تنهد في ارتياح عندما رآه ، فجلس قبالته ، بعد ان تبادل التحية معه .

ثم قال وهو يتناول شطيرة زبد :

– كانت الرحلة فاشلة تماماً .

– عجباً !!

وهنا حدثه بكل ما سمعه من لويزا بولارد ، ومن مدير مكتب التخديم مستر ونمان .

فلما فرغ قال مستر كوين بهدوء :

– هل أنت واثق ، بأنك لم تظفر من لويزا ، بما تريـــد . من معلومات ؟

– ماذا تعني ؟

– حسناً .. حسناً .. لقد رسمت لي صورة سريعة ، عن الحياة في قصر ديرنج هيل ..

لكنك لم تحدثني عن أوصافه من الخارج !

- لا شيء عن أوصافه يثير الاهتمام . إنه قصر صغير مبني بالآجر ، يظهر من الخارج ريفياً ، ولكنه من الداخل رائع ..

غرفات نوم مزودة بالماء الساخن والبارد، والحمامات الخاصة ، والسجاجيد الفاخرة ، والأثاثات الرائعة ..

وهو يقوم وسط حديقة مساحتها فدانان ، ولا يبعد عن لندن إلا تسعة عشر ميلا فقط .

فأنصت كوين بانتباه ثم قال :

- أعتقد ان مواعيد سير القطارات مضطرب في المنطقة ؟

- لا .. بل على النقيض ، انها مواعيد مضبوطة بالثانية وهي حقيقة أنا واثق منها تماماً .

- والقطار الذي يقوم من محطة ديرنج فيل التي بها مس سيلفيا ديل ، هل يمر في طريقه الى لندن على قصر ديرنج هيل؟

- نعم . لماذا ؟!

- أتذكر انك قلت لي ان مس سيلفيا ديل كانت في وقت الحادث تودع صديقة لها ركبت قطار الساعة السادسة وثمان وعشرين دقيقة الذاهب الى لندن ؟

- نعم نعم إن أقوالها ثابتة في محضر القضية .

- حسناً جداً . ألا تستطيع أن تجـــد علاقة بين تلك الحقيقة ، وبين ترحيل لويزا بولارد من البلاد بسرعة ، عقب وقوع الحادث ؟

- ماذا تعني ؟!

- ألا يظهر بوضوح ان الذي أمر بترحيلها يخشى ان تتحدث في المحكمة عما تحدثت به اليك ؟

- أي حديث تعني ؟

- الحديث عما رأت .

– وماذا رأت ؟

– علامة في السماء !

وحملق ساترويت في وجه مستر كوين .

ثم سأله :

– أتؤمن بمثل هذه الأوهام يا مستر كوين ؟

– ربما !. من يدري ؟. فلعلها رأت ، في تلك اللحظة ، يد العدالة !

– اوه ! ما هذا اللغو ؟ فقد اعترفت بنفسها انها لم تر غير سحابة من دخان القطار الذي كان يمر في تلك اللحظة .

– أي قطار ؟

– لا شك ، انه قطار الساعة السادسة وثمان وعشرين دقيقة ، الذاهب الى لندن ..

ولكن !. ان ذاك غير ممكن ؟

فهي سمعت في تلك اللحظة صوت الطلقات النارية داخل القصر ، وقد ثبت بالأدلة ان الطلقات النارية أطلقت في الساعة السادسة والثلث ، لا السادسة والنصف ! ·

– إذن كيف تفسر هذا التناقض في الأوقات ؟

– لعله كان قطاراً آخر ؟ قطار بضاعة مثلا ؟

– لو كان الأمر كما تقول ، لما اضطر السير جورج او سكرتيره الى ترحيل لويزا بمثل تلك السرعة .

وحملق ساترويت في وجه مستر كوين مندهشاً . بينما استطرد الثاني يقول بهدوء :

– هه ؟. ما رأيك ؟!

– اني لا زلت في حيرة . اذا كانت الرصاصات أطلقت على الجني عليها

في تلك اللحظة ، التي مر فيها قطار الســـاعة السادسة وثمان وعشرين دقيقة ، فلماذا أجمع الخــدم ، على انهم سمعوها في الساعــة السادسة والثلث تماماً ؟

- لسبب بسيط ، وهو خطأ في الساعات ، التي حددت ذلك الوقت !.

- جميع الساعات ؟! ان تلك مصادفة غير معقولة .

- اني لا أفكر في المصادفة ، وإنما في ان الحادث وقع ، في مساء يوم الجمعة ..

فقد قلت لي ان السير جورج كان حريصاً على ملء ساعات القصر بعد ظهر يوم الجمعة من كل أسبوع .

وهنا قال ساتروبت في رهبة وقد أدرك كل شيء :

- أي انه اخر جميع الساعات عشر دقائق ، ثم ذهب ليلعب البريدج ، ولا شك انه قرأ ، بطريقة ما ، الرسالة التي أرسلتها زوجته الى مارتن وايلد في الصباح فوضع خطة الجريمة باحكام .

ثم غادر بيت صديقه في السادسة والنصف ، بينما كانت ساعات القصر كلها تعلن السادسة والثلث فقط .

ووصل الى القصر من الباب الجانبي في لحظات ، فوجد بندقية مارتن التي نسيها بجوار الباب ، فاستعملها في ارتكاب الجريمة ، ثم أسرع الى الغابة والقى بها ثم عاد الى قصره حيث استقبله احد الخدم بالنبأ .

أما التليفون ، نعم فقد عطله عمداً حتى لا يستعمله الخدم في تبليغ الجريمة الى رجال البوليس .

لأنه لو تم التبليغ تليفونياً لسجل رجال البوليس الوقت الحقيقي لوقوع الجريمة ، اي السادسة والنصف تقريباً وتلك الحقيقة تؤيد مارتن وايلد في قوله انه وصل الى منزله في السابعة إلا ربعاً ، لأنه في الحقيقة غادر قصر

السير جورج قبل السادسة والنصف بلحظات ، لا بعـد السادسة والربع بلحظة او اثنتين ..

اني أرى الآن كل شيء بوضوح ..

ان لويزا كانت الخطر الوحيـد بحديثها عن أوهامها الخرافية ، وعما رأته من علامات في السماء ، فقد كان من المحتمل ان يفطن أحد الى دلالة مرور القطار في موعده المحدد ، وعنـدئذ تنهار خطة السير جورج من أساسها ..

– مدهش .. مدهش .

– لم يبق غير شيء واحد الآن ، وهو ماذا نفعل ؟

– أقـترح ، ان نعرض الأمر ، على مس سيلفيـا ديل ، خطيبـة مارتن وايلد

فبدا الشك على وجه ساترويت ..

ثم قال :

– لكنها .. فتاة ، ماذا يمكنها ان تفعل ؟

– إن لها والداً وإخوة يمكنهم اتخاذ الخطوات المناسبة .

– آه ! هذا صحيح ..

* * *

وبعد وقت وجيز ، كان ساترويت جالساً مع الفتاة سيلفيا ديل يقص عليها الأمر كله دون ان تقاطعه او تلقي عليه سؤالاً ، وإنما كانت منتبهة اليه بكل حواسها وتفكيرها .

فلما فرغ نهضت قائلة :

– يجب ان أستقل الآن سيارة أجرة .

– لماذا ؟ ماذا تنوين ان تفعلي يا آنستي العزيزة ؟

- إني ذاهبة إلى السير جورج بارنابي .

– هذا مستحيل ! هذه خطوة خاطئة جداً . إسمحي لي ..

وكان يتواثب بجانبهـا ، وقد سمحت له بـأن يتحدث اليها بما يريد ، وبأن يركب معها السيارة المأجورة ، ولكنها كانت مصممة على تنفيـذ خطتهـا .

فلما توقفت السيارة المأجورة أمام مدخل البناية التي يقع فيها مكتب أعمال السير جورج بارنابي ، هبطت منها ، تاركة ساتروويت فيها ، ثم عادت بعد نصف ساعة وهي تبدو متعبة ، مشعثة الشعر ، تتراخى خصلات شعرها الذهبي كأزهار ذابلة .

واستقبلها ساتروويت في قلق .

ولكنها قالت له بصوت هامس وهي تتراخى في جلستها ، وتُغمض عينيهـا :

– لقد انتصرت !

فهتف قائلاً :

– ماذا ؟ ماذا فعلت ؟ ماذا تقولين ؟

فاعتدلت في جلستها وقالت :

– أخبرته ان لويزا بولارد ذهبت إلى رجال البوليس ، وذكرت قصـة العلامة التي رأتها في السماء ، وقلت له ان رجال المباحث يقومون بتحرياتهم ، وقد شوهدوا يتسللون حول قصره ، ثم يخرجون منه ، بعد السادسة والنصف بلحظات .

وبينت له ان أمره قـد انكشف ، وإن خطته في ارتكاب الجريمة قـد افتضحت . وانهارت أعصابه تماماً .

ولكني بادرت وذكرت له انه لا يزال أمامه متسع من الوقت للهرب ، وان رجال البوليس ان يأتوا للقبض عليه قبل ساعة او ساعتين ، وأكدت له انني إذا حصلت منه على اعتراف مكتوب بأنه قتل فيفيان بارنابي ، فلن أحول بينه وبين الهرب . أمـــا إذا رفض ، فسوف أصرخ ، وأجمع عليه سكان البناية ، وأجعلهم يمنعونه من الفرار بعد ان أخبرهم بالحقيقة كلها .

وقد بلغ الفزع به حـداً جعله لا يدري ماذا يفعـل أو ماذا يقول ، وأنت لا تدري او لعلك لا تدري ماذا يمكن ان يفعل الفزع بأعصاب أي إنسان . وهكذا كتب الاعتراف ووقعه بامضائه ، قبل ان يدرك هول ما فعل .

ثم مدت يدها إلى ساترويت بالاعتراف المكتوب وأردفت قائلة :

– خذه ، خذه ، فأنت تعرف ماذا ينبغي ان تفعل بـه حتى يطلقوا سراح مارتن

وصاح ساترويت وهو لا يكاد يصدق عينيه

– عجباً ! إنه وقعه بامضائه حقاً ؟

– لا عجب في هذا ، فإن القاتل عادة يكون محدود الذكاء رغم ما قد يبدو من إحكام خطته ، والشخص المحدود الذكاء إذا اضطرب وارتبك فإنه يخطىء في تصرفاته ثم يندم بعد ذلك .

ولما رآها ترتجف قال لها :

– إنك في حاجة إلى كأس شراب لتهدئي من روعك . إني أعرف مطعماً جميلاً ، يمكننا ان نجلس فيه قليلاً .. انه مطعم آرليكشينو . فهل تعرفينه ؟

فهزت رأسها

فأوقف سانرويت السيارة المأجورة أمام المطعم ، ثم دخله مع الفتاة وهو يتمنى ان يجد مستر كوين في مكانه .

لكن المقعد كان خالياً منه .

وقالت سيلفيا حين رأت إمارات الاستياء تبدو على وجهه :

– ماذا حدث ؟

– لا شيء . كنت أتوقع ان التقي بصديق هنا ، ولكن لا بأس ، فلا شك إني سأراه مرة أخرى ذات يوم .

- ٣ -

بيت الأسرار

كان مستر ساترويت يقضي ، كالمعتاد ، في كل صيف بضعة أسابيع في جزيرة كابري .

وكانت عادته في أكثر الأيام ، عند الغروب ، أن يمضي في ذلك الطريق الذي تحف به الدور الصغيرة البيضاء الراقدة تحت ظلال النخيل ، ومنها إلى الشاطىء الصخري ، ومن الشاطىء إلى طريق صاعد بين صفين من أشجار السرو ، حيث ينتهي عند ربوة يقوم عليها قصر صغير تحيط به حديقة واسعة يفوح منها شذا الورود والأزهار العطرة .

وعلى بوابة حديقــة هذا القصر ، كان يقف البستاني العجوز الاسبــاني الجنسية مانويل .

وكان من عادته ان يقدم لكل عابر من الرجال وردة ناضرة ، ولكل عابرة من السيدات باقة جميلة من الزهور ، ثم يضع في جيبه مع كلمة شكر رقيقة ، ما يجود به الرجال والنساء .

وكثيراً ما كان يحلو للمستر ساترويت ان يتخيــــل سكان ذلك القصر

الذي لم ير فيه باباً او نافذة مفتوحة أبداً في يوم من الأيام .

وكانت أعذب خيالاته ، أن يتصور فيه مغنية أوبرا عالمية ، أو راقصة باليه مشهورة ، او ممثلة كان اسمها يملأ الآذان ، وجمالها يملأ العيون ، ثم قررت ان تعتزل عالم المجد والأضواء بعد ان امتد بها العمر ، فانطوت على نفسها في هذا القصر الصغير حتى لا يرى أحد ماذا فعلت الأعوام بذلك الجمال الذي طالما بهر العيون وأسر القلوب .

وللمرة الألف ، أو اكثر ، راح ينظر في فضول شديد إلى نوافذ القصر الصغير ، دون ان يدري هل هو خال تماماً أم ان به تلك الساكنة التي خلق حولها أطياف خيالاته .

وأخيراً انحدر في ممر بالحديقة الى ذلك المرتفع الرهيب الذي يطل على مياه البحر في منطقة ثائرة دائماً .

وكان كلما جلس على ذلك المرتفع ، تذكر ذلك السباح الانجليزي الذي غامر ، منذ أعوام عديدة خلت بالقفز منه إلى المياه الثائرة ، ولكنه عجز عن المقاومة ، فمات غريقاً .

وتحولت أفكاره إلى الحياة والموت . الحياة .. والموت .. ما هي الحياة؟ وما هو الموت ؟

هل هو حقاً يحيا الآن ، أم انه ميت يحلم ، أم انه سوف يحيا بعد ان ينتقل إلى عالم آخر ؟

وتنبه من أفكاره هذه على صوت وقع أقدام خفيفة وراءه ، ثم على صوت رجل يقول :

ـ اللعنة !!

والتفت وراءه ليرى رجلاً في منتصف العمر ، ينظر اليه في دهشة واستياء .

فتعرف مستر ساترويت عليه فوراً ، كان قد رآه ينزل في اليوم الأسبق

بنفس الفندق الذي ينزل هو فيه ، وكان هناك شيء ما في مظهره وتصرفاته لفت انتباهه اليه .

فرغم انه ، أي ذلك الرجل الانجليزي ، كان قد تجاوز الأربعين من عمره ، فقد كان يظهر كأنه في ميعة الشباب بالصبا ، ومن ثم كان ساتروبت يقول لنفسه كلما رآه :

– هذا الرجل من الأشخاص الذين يعيشون طيلة أعمارهم أطفالاً » .

كان ممتلىء الجسم بعض الشيء طويلا ؛ ينم وجهه على انه لم يحرم نفسه يوماً من أطايب الحياة .

لكن شيئاً ما في عينيه العسليتين كان يدل على حزن عميق او إضطراب أو قلق مقرون بالدهشة والتساؤل .

وتنبه ساترويت من أفكاره على صوت الرجل ، وهو يقـــول له بلهجة اعتذار وارتباك :

– اني آسف فالواقع اني دهشت وفوجئت . فما كنت أتوقع أن أرى أحداً في هذا المكان المنعزل .

فتزحزح ساترويت من مكانه قليلاً ، كأنما يدعو الرجل إلى الجلوس بجانبه ..

فلما قبل الدعوة وجلس قال له :

– الواقع انه كان منعزلاً فعلا .

- ومع ذلك فكلما جئت اليه وجدت فيه شخصاً ما .

وكانت نبرات صوته تنم على الضيق والاستياء .

ترى لماذا ؟!

فهز ساترويت كتفيه وهو يقول :

– إذن فقد جئت اليه من قبل ؟

– كنت هنا مساء أمس بعد العشاء .

ـ حقاً ؟ كنت أظن ان بوابة الحديقة تغلق بعد العاشرة مساء .

ـ نعم ؛ ولكني تسلقت سياجها .

ـ هل وجدت احداً هنا في مثل هذا الوقت ؟

ـ نعم .. وكان يرتدي ثوباً تنكرياً .

ـ ثوباً تنكرياً ؟.

ـ نعم .. ثوبـاً كالذي يرتديه المهرجـون .. والذي يسمى : « هارليكوين » ..

فنظر اليه ساتروبت في دهشة وانفعال .

ثم قال متسائلا :

ـ ما هذا ؟

ـ إن نزلاء الفندق يرتدون عادة مثل هذه الملابس التنكرية في الحفلات الراقصة .

ـ آه ! نعم ، هذا حق

ـ لقد أدهشني هذا الرجل بظهوره المفاجيء ، ثم باختفائـه المفاجيء ، وكأنه شبح يظهر ويختفي دون ان يعرف أحد من أين جاء أو الى اين ذهب . لقد خيل إلي انه جاء من البحر .

فنظر ساترويت إلى الهاوية العميقة التي تنتهي بمياه البحر ، بينما أردف الرجل قائلا :

ـ لكن هذا مجرد وهم بطبيعة الحال ؛ فليس في هـذا المرتفع الصخري مكان تقف عليه ذبابة إنه هاوية تؤدي .. تؤدي الى النهاية في لحظة وهو ايضاً مكان نموذجي لارتكاب جريمة قتل .

وحملق الرجل في وجهه مندهشاً ..

لكنه لم يلبث ان غمغم قائلا :

ـ آه .. نعم ؛ نعم .. مجرد دفعة باليد ثم ينتهي كل شيء .

فخيم الصمت على الرجلين . واستغرق كل منهما في أفكاره . وفجأة قال الرجل الغريب كأنما يحدث نفسه :

– ما جدوى كل هذا ؟ لماذا نحيا ؟ ولماذا نموت ؟

فنظر اليه ساتروبت دون ان يقول شيئاً .

فتابع الرجل يقول .

– سمعتهم يقولون انه ينبغي ان يبني كل رجل بيتاً وأن يزرع شجرة وان ينجب ولداً .

ثم صمت برهة قبل أن يردف قائلا :

– أعتقد اني وضعت ذات يوم بذرة إبن .

واضطرم فضول ساتروبت ، وقرر ان يعرف من أمر هذا الرجل الشاب كل ما يمكن معرفته .

ولم يجد ثمة مشقة في ذلك .

فما لبث هذا ان راح يفضي بالحديث عن نفسه ، وكأنما يجد في الإفضاء راحة من شيء يثقل عليه .

إن اسمه انتوني كوزدين ، وإن حياته صورة مطابقة لما تخيلها مستر ساتروبت .

حياة شخص ورث في شبابه ثروة طيبة تدر عليه ريعاً سنوياً لا بأس به . وعاش بهذا الريع حياة أقرب ما تكون الى الفراغ والترف . أصدقاء كثيرون ، ومباهج متوالية من الحياة ، ونساء كثيرات . حياة يمكن ان يقال عنها بصراحة : « حياة بوهيمية » .

ولكن ساتروبت قال لنفسه :

– ولكن هناك أنواعاً من الحياة أسوأ منها بكثير .

ثم جاءت النهاية . .

جاءت أولاً غامضة مبهمة .

لقد أحس ذات يوم بألم بسيط ، فنصحه الطبيب بأن يعرض نفسه على أخصائي في شارع هارلي ستريت

ومع مرور الأيام ، عرف الحقيقة تدريجياً حين أخذ الأطباء ينصحونه بالحياة في هدوء وترفق ، وعدم إجهاد بدنه او أعصابه .

وانتهى الأمر بأنه عرف ان الفترة الباقية من عمره ؛ لا تزيد على ستة أشهر .

فاستدار انتوني بعينيه الممتلئتين بالتساؤل والقلق والدهشة ، ونظر إلى ساترويت كأنما يقول له :

– ما رأيك ؟

فلم يجد ساترويت ما يقوله .

فتابع الرجل الشاب قائلاً:

إنه حاول جهده أن ينسى أقوال الأطباء ، وان يمضي في حياته كالمعتاد ، ولكنه أدرك بعد أيام معدودة ان هذا غير ممكن لأن أصدقاءه وصديقاته بدأوا بالانصراف عنه .

إنهم يريدون الحياة في بهجة ومرح ، ويحبون الصديق الممتلىء الجيب بالمال ، والقلب بالحياة ، لا الإنسان الذي يعيش بينهم في كفن !

وأخيراً قرر مغادرة وطنه والمجيء إلى هذه الجزيرة .

فقال ساترويت وهو يحاول ان يجد ما يقوله :

– ولماذا هذه الجزيرة بالذات ؟ هل سبق ان جئت اليها ؟

– نعم .. وأنا شاب في العشرين ، أو الثانية والعشرين ، من عمري .

وفجأة التفت وراءه ، وأرسل نظرة سريعة إلى القصر الصغير القائم فوق الربوة ، ثم قال :

- إني أذكر هذا المكان . فإن خطوة واحدة منه تؤدي بالإنسان إلى النهاية .

- ألهذا جئت أمس .. والليلة ؟!

فنظر أنتوني اليه باستياء ثم قال :

- أوه ، أعتقد ان هذا الأمر لا يخصك في شيء .

- لقد وجدت ليلة أمس شخصاً، ووجدتني اليوم ، وهذا يعني ان حياتك أنقذت مرتين

- يمكنك ان تقول ما تشاء . لكن اللعنة على كل شيء . إنها حياتي وأنا حر التصرف فيها

- هذا تعبير معروف أصبح الآن على كل لسان .

فاعتدلت لهجة أنتوني وهو يقول :

- طبعاً .. طبعاً . إني أدرك حقيقة موقفك مني . فمن واجبك ان تنصحني وان تخفف عني وان تبث الأمل في قلبي . فهذا واجبك حتى لو كنت تدرك تماماً اني على حق

لكن أليس من الأفضل ان أضع نهاية سريعة حاسمة لحياتي بدل هذا الانتظار الرهيب للموت ؟ بدل ذلك العذاب المنتظر في الأيام او الأسابيع السابقة على الموت ؟ إني لن أكون آسفاً على شيء ، لأنه ليس لي في الحياة من أهتم به .

فقال ساترويت بسرعة :

- ولو كان لك في الحياة من يهمك أمره ؟

- إني لا أدري ، لكني مع ذلك كنت أرى انها الطريقة الفضلى . وعلى أية حال فليس لي ..

ثم توقف عن الحديث فجأة.

فقال له ساترويت :

- أليست لك .. حبيبة ؟
- عرفت نساء كثيرات ، لكنها كلها كانت علاقات عابرة إلا ..

ومرة أخرى صمت فجأة ثم أردف :
- تمنيت لو كان ابن .. لكن ما جدوى تلك الأمنية ؟ حتى لو تحققت فإن الفترة الباقية من حياتي لا تزيد على ستة أشهر ، بل خمسة أشهر وستة أيام على التحديد .
- إن الوقت مثل كل شيء مسألة نسبية ، فمن يدرك ان هذه الأشهر الستة قد تكون أجمل شهور في حياتك كلها وأحفلها بالبهجة العميقة الحقيقية ؟ هذا على فرض صحة أقوال الأطباء .

فظهر عدم الاقتناع على وجه أنتوني وهو يقول .
- لو كنت في موضعي .. فهل في مقدورك ان تحتمل هذه الشهور الستة ؟

فضحك ساترويت وقال .
- أولاً ينبغي ان أكون شجاعاً جداً لمواجهة هذه الأشهر الأخيرة من حياتي ، وأخشى ان أقول إني لا أتمتع بمثل هذا اللون من الشجاعة ، وأما ثانياً ..
- حسناً ؟!
- أحب دائماً ان أعرف ماذا يخبئه الغد لي .

وهنا نهض أنتوني وأرسل ضحكة جوفاء وقال :
- حسناً يا سيدي ، أشكر لك هذه الفترة الطيبة التي أتحت لي فيها فرصة الحديث . ولست أدري لماذا تكلمت والآن إذا سمعت عن حادث وقع لي ، فأرجو ألا تخبر أحداً انه حادث مدبر مقصود لكن لا يمكنك ان تقول ما تريد ، فهل يضير الإنسان ما يقال عنه بعد ان ينفض يديه من الحياة ؟

ثم أردف قائلا وهو يهم بالانصراف :

- إني لا أريد الليـلة ، ان يقال عنك انك دفعتني بيدك من فوق هذا المرتفع ، ولا بأس من تأجيل الانتحار إلى غد أو بعد غد . فليس هناك ما يدعو إلى التعجل .. حسناً .. أرجو ان أراك الليلة في الفندق ، بعد العشاء

وبعد انصراف الرجـل ، بقي ساتروبت منفرداً بنفسه ، ينظر إلى الأفق البعيد ثم يقول لنفسه :

- والآن .. ماذا بعد ؟

وأخيراً نهض واقفاً فاستدار نحو الربوة يمضي في طريقه اليهـا ليخترق حديقة القصر ومنها الى الطريق المنحدر نحو الفندق .

لكنه توقف فجـأة أمام القصر الصغـير وراح ينظر في شفق الغروب إلى نوافذه المغلقة .

فعادت أطياف خياله تحوم حول تلك « الراقصة او المغنية » التي لعلها تقيم فيها بعيداً عن أضواء المجد والشهرة ؛ بعد ان أخذ جمالها في الذبول . فاستبد به الفضول فإذا هو يتقدم نحو كومة من الأحجار ويتسلقها إلى نافذة قريبة ثم يجذب مصراعيها الخشبي كأنما يختبره .

ولشد ما كانت مفاجأته حين وجد المصراع يستجيب له وينفتح فإذا هو يتراجع حين رأى أمامه سيدة بملابس سوداء تغطي رأسها بطرف حريري أسود جامدة الوجه تنظر اليه بصمت .

فارتبك ساتروبت وراح يعتذر بكل ما طرأ على ذهنه من كلمات إيطالية وفرنسية وإسبانية قليلة . وفيما هو يتراجع في خجل إذا به يتوقف حين سمع المرأة تقول له بصوت حاد كالطلق الناري :

- تعال !

وبلغ من قوة اللهجة الآمرة ان توقف ؛ ثم عاد أدراجه كالكلب الذي

يلبي في مذلة أمر سيده . حتى إذا وقف متسمراً أمـام النافذة ؛ قالت له بصوت اقل حدة :

ـ هل أنت إنجليزي ؟

وعاد ساترويت يقول معتذراً :

ـ لو كنت أعرف انك انجليزية لأحسنت الاعتـذار باللغة التي أتقنها . إني اعتذر باخلاص عما فعلت ؛ إن الفضول وحده هو الذي دفعني إلى هذه النافذة . فلم اكن اعرف انها هيئة الفتح . والواقع اني كثيراً ما تساءلت عما في داخل هذا القصر ؟

وهنا أرسلت ضحكة عميقة عذبة وقالت :

ـ إذا كنت تريد هذا ؛ فيحسن ان تتفضـــل بالدخول ؛ لترى بنفسك ؟

ثم تنحت له جانباً ، فدخل ساترويت وهو أشد ما يكون ابتهاجاً ، فوجد نفسه في غرفـة ذات أثاث فاخر ، لكن الغبار كان متراكماً على كل شيء فيها .

فقالت المرأة :

ـ إننا لا نجلس هنا ، لأننا لا نستعمل هذه الغرفة .

ثم عبرت معه بهواً كبيراً ومضت بـــه إلى غرفة أخرى في الجانب الخلفي من القصر ، تطل على مياه البحر . وكانت أيضاً فاخرة الأثاث ، نظيفة مريحة .

ودعته إلى الجلوس على مقعد وثير وهي تقول :

ـ لسوف تشرب الشـاي معي . إنه شـاي جيد ، تحسن خادمتي صنعه .

ثم مضت إلى باب الغرفة وأصدرت تعليماتها باللغة الأسبانيـة ، وبعدئذ عادت وجلست أمامه .

فاستطاع حينها ان يتأملها بامعان .

كان أول شعور خامره وهو يراها ، إحساسه العميق بالشيخوخة أمام فوره أنوثتها ، ووفرة حيويتها ، ونضـــارة مظهرها ، وقوة شخصيتها . كانت طويلة القامة ملفوفة الجسم خمرية اللون واسعة العينين رائعة الجمال رغم انها في نحو الأربعين من عمرها .

وكان مجرد وجودها في الغرفة يجعل ضوء الشمس الغارب كأنه ضوؤها وهي في سمت الضحى باهراً ساطعا .

وكان مجرد الجلوس أمامها ، يشعر الانسان بهذه المتعة التي يحسها في يوم بارد ، وهو جالس أمام مدفأة تطرد عنـه البرد ، وتملؤه بهذا الدفء الممتع .

فقال لنفسه :

ــ لقد بلغت وفرة حيويتها ، أن راحت تنشرها حول من يجلس معهـا !.

ومع هذا كله كان يشعر بشيء من الخوف ، لأنه لم يكن يميل أبداً إلى المرأة ذات الطابع المسيطر

فقالت له بعد أن تأملته بدورها طويلا :

ــ إنني سعيدة بحضورك ، لأني كنت في أشد الحاجة إلى من أتحدث معه هذا المساء . ويظهر لي انك من الأشخاص الذين يطمئن الإنسان في حديثه معهم .

وأقبلت الخادمة بالشاي . وبعد انصرافها ، قال هو على سبيـل المحادثـة :

ــ أتقيمين هنا ؟

ــ نعم .

ــ دائماً !! إن القصر دائماً مغلق ، أو هكذا يبدو لي .

- إني أقيم هنا معظم أوقات السنة دون ان يعرف ذلك كثير من الناس ، لأني أستعمل فقط الجانب الخلفي من القصر .

- وهل هو ملك لك منذ .. منذ أمد بعيد ؟

- منذ اثنتين وعشرين عاماً تقريباً . وقد عشت فيه عاماً كاملاً قبل ذلك التاريخ .

- هذه مدة طويلة جداً ؟

- العام أم الاثنين والعشرين عاماً ؟

- إن هذا يتوقف ..

فأومأت برأسها وقالت :

- نعم .. إن هذا يتوقف على نوع الحياة نفسها ، والواقع أنهما ، من هذه الوجهة ، فترتان منفصلتان تماماً ، ولست أدري أيهما أطول من الأخرى ، وحتى الآن لا أدري .

وبعد برهة من الصمت عادت تقول وهي تبتسم :

- لقد مضت فترة طويلة لم أتحدث فيها إلى أحد .. ويلوح لي انك من الأشخاص الذين يحبون ان يعرفوا أسرار الغير . لا .. لا .. لا تعتذر ، لأن الحياة أحياناً تكون مملة ، لا سيما إذا عاش الانسان ينتظر شيئاً .. ويطول انتظاره ..

فابتسم وقال :

- يخيل لي انك لست من الذين يقفون على هامش الحياة وينتظرون . فإنك واحدة من اللاتي رأى القدر ان يحملهن في خضم معركة الحياة .. إن يكن صاحبات الأدوار الرئيسية في مسرحيات الحياة .

- ما أعجب ما تقول !

- ومع ذلك فأنا واثق مما أقول . فلا شك أن في حياتك الشيء الكثير من التجارب او ربما من المآسي .

وضاقت عيناها قليلاً ، وهي ترسل نظراتها نحو مياه البحر ، ثم قالت :

– لو انك مقيم هنا منذ فترة طويلة ، لأخبرك شخص مـا عن السباح الانجليزي الذي غرق في أسفل ذلك المرتفع الصخري ، ولحدثك عن شبابه وقوته وجماله وعن زوجته الصغيرة التي وقفت على قمة المرتفع وشاهدته وهو يغرق .

– لقد سمعت شيئاً عن هذه المأساة .

– ذلك الشاب كان زوجي ، وهذا القصر كان ملكاً له ، وقد تزوجني وجاء بي إلى هنا وأنا في الثامنة عشرة من عمري ، وبعد عام مات غريقاً . حملته الأمواج ودفعت به إلى الصخور المسنونة ، وظلت تضربه فيها حتى مزقت جسده .

وفوجىء مستر ساترويت بحديثها ، فحاول ان يقول شيئاً ، لكنها تابعت كلامها وهي تحدق النظر في وجهه :

– لقد تحدثت عن المآسي ، فهل سمعت عن مأساة أقسى من هـذه ؟ زوجة شابة لم يمض على زواجها من حبيبها غير عام واحد . ثم إذا هي تقف ذات يوم عاجزة تماماً ، فترى حبيبها وشريك حياتها ، وهو يصارع الموت من أجل الحياة !.

وأخيراً صرعه الموت في أبشع صوره !

فقال ساترويت في تأثر عميق :

– هذا فظيع !. نعم .. إنني أتفـق معك ، في أنها مصيبـة ليس لها مثيل !

فأرسلت ضحكة عاليـة ، وهي تتراجع برأسهـا إلى الوراء ، ثم قالت :

– بل هناك مـا هو أبشع وأفظع من هذه الصورة .. إنها صورة

الزوجة الشابة ، وهي واقفة فوق المرتفع ترجو وتبتهل إلى الله ان .. ان يغرق زوجها .

– يا إله السموات ! إنك لا تعنين !

– نعم ! هذا ما أعنيه تماماً لقد كنت راكعة هناك على المرتفع أبتهل إلى الله ، وكان الناس جميعاً يحسبونني أبتهل لنجاته . لكني على النقيض كنت أضرع إلى الله ان يخلصني منـــه ، وان يحررني في الوقت نفسه من هذه الأمنية الشريرة .

كنت أقول :

« طهر نفسي يا ربي من رغبة رؤيته ميتاً » . لكن لم يكنْ ثمة فائدة فقد كنت أتمنى موته بكل ذرة من كياني !

وصمتت برهة قبل أن تردف قائلة بصوت أكثر رقة :

– اليس هذا فظيعاً ؟ اليس هذا من نوع الانفعالات التي لا يمكن للمرء ان ينساها ؟ نعم ! لقد بلغت سعادتي ذروتها حين علمت انه مات ، وانه لن يستطيع العوده لتعذيبي

فتمتم ساترويت مصدوماً :

– يا طفلتي المسكينة !

– نعم . كنت في ذلك الوقت أصغر من أن يحدث لي شيء رهيب كهذا . إن مثل هذه المآسي ينبغي ان تحدث ونحن أكبر سناً ، وأكثر تجربة أي عندما نكون مستعدين لاحتمال فظاعتها ، ولم يكن احد يعرف ماذا كنت أعاني منه .

لقد حسبته عندما رأيته اول مرة ، شاباً رائعاً ولشد مـــا أحسست بالزهو عندما طلب يدي للزواج . لكني فوجئت بعد زواجنا ، بوحشيته كان يغضب مني لأتفه سبب ولم يكن ثمة شيء أقوم بـــه يرضيه . وقد بذلت كل جهد لإرضائه . كان يحلو له تعذيبي ، ويلتمس السعادة من إفزاعي

وكان يبذل كل جهوده لابتكار الوسائل التي تشقي حياتي ، وتملأ أيامي بالرعب .

ولا أستطيع ان أذكر لك شيئـا منها ، لكن يكفي إني ظننتـه مجنونا . وكنت هنا بمفردي ، في قبضة يده وتحت رحمته فاتخذ من تعذيبي هواية له .

وكان أسوأ ما في الأمر اني كنت حاملا ، وقد فعل بي شيئا جعل الطفل يولد ميتا .

طفلي أنا .. مات أثناء الوضع ، وكدت انا ايضا ان أموت ، لكني لم امت وتمنيت الموت لكن لم امت لكي اتعذب .

فتمتم مستر ساترويت بكلمات هزاء مبهمة ، بينما استطردت هي قـائلة :

– واخيراً جاء الخلاص ، بالطريقة التي حدثتك عنها . فإن بعض الفتيات المقيمات في الفندق سخرن منه قائلات انه لا يستطيع القفز من ذلك المرتفع إلى الماء . واراد هو ان يثبت قوته وبراعته رغم ان الجميع أكدوا له ان هلاكه في هذه المغامره .

لكنه كان شديد الزهو والغرور . وقد شهدته وهو يقوم بالمغامره ، ثم وهو يغرق ، فسررت بالخلاص منه .

ليغفر لي الله .

مد ساترويت يده النحيلة الجافة ، وضغط بها على يدها وقد خيل اليه أن آثار الزمن قد تلاشت عن وجهها ، وإذا هي قد ارتدت إلى التاسعة عشره من عمرها .

وعادت تقول :

– فلم أصدق الأمر من فرط سعادتي . فقد أصبح القصر ملكا خالصا لي ، وغدا في مقدوري ان اعيش فيه دون ان يعـذبني او يشقيني أحد .

كنت في حياتي يتيمة ، ليس لي اقارب يهمهم امري . وقد ادى هذا الى تبسيط حياتي ، فعشت بعد مصرعه كأني في الجنة .

نعم .. كنت أسعد إنسانة في الوجود وكان يكفيني ان أشعر بالسعادة حين أفكر اني أقضي أيامي بلا آلام او أحزان او خوف مما سيفعله بي بين لحظة وأخرى . نعم . كنت كالذي يعيش في جنة الخلد

فلما توقفت عن الحديث قال مستر سازرويت :

-- وبعد ذلك ؟!

ـ أعتقد ان الإنسان بطبيعته لا يقنع بشيء ، فبعد أشهر من هذه الحياة الهانئة بدأت أشعر بالعزلة والوحشة . بدأت أفكر في طفلي الذي مات . فلو انه كان لي طفل فقط !

كنت أريد طفلاً ولعبة أتسلى بها . كنت أهفو بكل كياني إلى شيء أو إلى شخص أتسلى به . وقد تعتبر هذا حماقة صبيانية . لكن كان هذا هو الواقع .

- نعم . نعم ، اني أفهم

ـ من العسير ان أشرح لك ما حدث بعد ذلك بالتفصيل . كان ثمة شاب إنجليزي يقيم في الفندق ؛ وفي ذات ليلة وصل مصادفة إلى حديقة القصر ، وكنت البس ثوباً اسبانياً . فحسبني فتاة اسبانية من قرية مجاورة . فخطر لي ان أتسلى وأتظاهر بأني أسبانية حقاً ، ومثلت دوري ببراعة رغم ان أسبانيتي كانت رديئة ، لكنه لم يكن يعرف منها غير عبارات قليلة . فزعمت له ان القصر ملك لسيدة إنجليزية ارستقراطيـة ، سافرت إلى منطقة نائيـة فقلت انها هي التي علمتني لغتي الانجليزية البسيطة .. ولشد ما كان سروري ، وأنا أمثـل دور المتكلمة بلغة إنجليزية سقيمـة

فبدأ هو في مغازلتي ، فاستجبت له وتظاهرت معه ان القصر ملك لنا

واننا تزوجنا في تلك الليلة وجئنا للإقامة فيه .

فاقترحت ان نتسلل الى القصر عن طريق إحدى النوافذ ، نفس النافذة التي دخلت أنت منها ، وكان مصراعها مفتوحاً من الداخل .

دخلنا في حذر إلى الغرفـــة التي كانت ، كما هي الآن ، مهملة ، يعلوها الغبار .. وعلى الجملة كانت لحظات جميلة ، مليئـــة بالإثارة والانفعالات .

وتوقفت بغتة عن الكلام فتطلعت إلى ساتروويت طويلاً كأنما نلتمس منـه ان يدرك شعورها ويلتمس لها العذر .

ثم تابعت تقول :

– كان كل شيء يبدو رائعاً ، وكأننا نعيش في أسطورة عذبة ، أو في قصر مسحور . وكان أجمل ما في الأمر كله انه كان يـلوح لي خيالياً لا أثر فيه للحقيقة

فأومأ ساتروويت برأسه بينما تابعت هي كلامها

– كان يبدو لي شاباً إنجليزياً من الطراز العادي غادر بلاده في رحـــلة قصيرة للمتعة والنزهة . لكنه كان لطيفاً مرحاً ، وقد تمادينا في القيام بدور الزوج والزوجة ، أتفهم ؟

وبعد برهة من الصمت عادت تقول

– نعم تمادينا في القيام بهذا الدور وعاد هو في صباح اليوم التالي إلى الحديقة ورأيته من خصاصات نافذة غرفة نومي ، ولم يخطر بباله طبعاً اني مقيمة في القصر . فقد كان يحسبني فتاة اسبانية قروية ، وكان قد طلب مني ان أقابله في اليوم التالي . ومن ثم راح يتلفت حوله وينتظر . ولم أكن من ناحيتي أنوي ان أكرر المقابلة . لكن بدا لي انه كان يشعر بالقلق من أجلي ومما فعل بي في الليلة الماضية .

نعم ، كان شاباً لطيفاً رقيق الاحساس

وتوقفت ثانية عن الكلام قبل ان تتابع قائلة :

. فلم يعد في اليوم التالي . غادر الجزيره . ولم أره بعد ذلك . لكن طفلي منه ولد سليماً بعد تسعة اشهر .

كنت في خلال هذه الأشهر أسعد إنسانة في الوجود ففاضت كأس سعادتي عندما حملت لأول مرة الطفل ، طفلي أنا ، بين ذراعي . فتمنيت في تلك اللحظات لو اني سألت ذلك الشاب الانجليزي عن اسمه ، حتى أسمي الطفل به . فقد ظهر لي اني ظلمته في احتفاظي بالطفل لي وحدي . لكنني كنت في أعماق نفسي اشكره واعترف بجميله لأنه اعطاني كل ما كنت اتمناه في حياتي.

- هل الطفل موجود حتى اليوم ؟

- نعم ان اسمه جون ؛ وهو الآن شاب رائع في العشرين من عمره ، وإني أتمنى لو انك تراه . وسوف يغدو مهندس مناجم . وكان ولم يزل أجمل وابر الأبناء . وقد اخبرته ان والده الانجليزي ، مات قبل مولده ؛ بأسابيع قليلة .

فحملق ساترويت في وجهها مندهشاً لهذه القصة التي سمعها . لكنه كان في الوقت نفسه يشعر ان القصة لم تتم فصولها بعد .

ومن ثم قال :

- إن عشرين عاما وقت طويل جداً . ألم تفكري خلالها بالزواج مرة ثانية ؟

- كان ابني يملأ علي حياتي دائما .

ثم اردفت قائلة وهي تنظر الى مياه البحر في ذهول :

- لكن الحياة لا تبقى على حالة واحده ابداً . لا بد ان تقع فيها الأحداث وكثيراً ما تكون هذه الأحداث عجيبة غريبة غير متوقعه . ولعلك لن تصدقني مثلاً حين اقول لك اني لم أكن احب والد إبني جون

عندما عرفته في تلك الليلة او بعد ذلك بأشهر بل لم اكن اعرف ما هـو الحب في ذلك الحين .

وقد توقعت بداهة ان يكون الابن شبيها بي . ولكنه جاء لا يشبهني في شيء .

بل ان من يراه لا يظن اني امه !.

لقد جاء شبيها بأبيه تماما .

وهكذا تعلمت كيف اعرف اباه عن طريقه ؛ وعن طريق الابن تعلمت كيف احب ذلك الأب الذي لم اعرفه غير ليلة واحده ؛ واني لأحبه الان وسوف اظل على حبه الى غاية العمر .

لعلك ستقول اني واهمة واني اقمت حبي على اساس من الوهم ؛ ولكن لا ا تأكد اني احب الآن ذلك الرجـل . احب الرجل بدمه ولحمه وكل شيء فيه ؛ اعني اني لا احب صورته او خياله ولو اني رأيته الليلة او غـــداً فسوف اعرفه فوراً رغم هذه الأعوام العشرين التي مرت على فراقنا . إن حبي له هو الذي انضج انوثتي ..

لهذا فإني احبه حب الأنثى الناضجة للرجل القوي

وقد عشت هذه الأعـوام العشرين وانا احبه وسوف ابقى على هـذا الحب حتى الممات .

وتوقفت بغتة قبل ان تتابع كلامها في تحد :

- هل تظن إني مجنونة إذ أقول هذا ؟

فتناول ساترويت يدها بين يديه وتمتم قائلاً بحنان :

ـ لا .. لا . مطلقاً يا عزيزتي .

- هل تفهم حقيقة مشاعري .

- نعم . نعم !. ولكن هنـاك شيئاً آخر .. شيئـاً لم تخبريني به بعد .

فقطبت جبينها برهة ثم قالت :

ـ نعم ، هناك شيء آخر ويلوح لي انك خبير بدخائل النفوس . لكني أوثر ألا أخبرك بهذا الشيء لمصلحتك .

وعندئذ قال ببطء :

ـ حدث شيء لم يكن متوقعاً . اليس كذلك ؟

وطرفت عيناها قليلاً ، وهزت رأسها في استسلام .

ثم قالت :

ـ نعم .. ولكنني أوثر ألا أخبرك به .. وذلك ، كما قلت لك ، لمصلحتك .

ـ هل تخشين ان أصبح شريكاً في المسؤولية إذا عرفت ؟

فشحب وجهها فجأة وزمت شفتيها ..

عندئذ قال لها :

ـ انك تفكرين بالانتحار !

ـ أوه ! كيف عرفت ؟ كيف عرفت ؟

ـ هذا عجيب ؟ إني لم أر في حياتي إمرأة ممتلئة بالحيوية والرضا وحب الحياة مثلك ، فلماذا تفكرين في الانتحار ؟

فنهضت ومضت إلى الشرفة المطلة على البحر وقالت :

. لأنقذ إبني من الحقيقة ، انه لا يعرف انه ابن سفاح ، إنه ابن ليلة غرام فلو عرف هذه الحقيقة فسوف ينهار تماماً ، لأنه شديد الاعتزاز بنفسه ..

وقد أحب اخيراً فتاة وقرر الزواج بها . وسوف يحضر بعد وقت قريب ليعرف كل شيء عن أبيه . عن حسبه ونسبه حتى يكون مستعداً لأسئلة أهل الفتاة .

فلو عرف حقيقة أمره ، فسوف يقطع علاقته بالفتاة ويرحل إلى مكان

ناء ليغرّق نفسه في الشراب والضياع .
أوه ! انا أعرف ماذا تريد ان تقول .
ولكن لا .. إني أعرف إبني أكثر منك ، إنه لن يطيق ابداً أن يعيش بين أشخاص يعرفون انه ابن سفاح ، والناس في مثل هذه الحالات لا يرحمون ولا يغفرون .

لكن اذا وقع لي « حادث » قضى على حياتي قبل مجيئه ، فسوف يضيع كل شيء في غمار هذا الحادث ، وحين يفتش الأوراق التي سأتركها ورائي ، فإنه لن يجد شيئاً ، وسوف يستاء لأني لم أخبره بشيء كثير عن والده !

لكنه لن يشك في شيء .. هذه هي الوسيلة الفضلى ، وعلى الإنسان أن يدفع ثمن سعادته !

وقد اغترفت من السعادة الشيء الكثير بحيث اعتبر ان تضحيتي بحياتي ثمن يسير . كل ما أحتاجه بعض الشجاعة لأقفز من فوق المرتفع ثم أتحمل عذاب الموت لحظة او لحظتين .

– لكن يا طفلتي العزيزة !

– لا تتعب نفسك في محاولة إقناعي . لقد قررت أمراً وانتهيت منه . وحياتي هي ملكي الخاص ، وكان إبني جون في حاجة اليها لينمو وقد نما . وهو الآن في حاجة الى ان أفقدها لينجو من العار ولسوف أضحي بها من أجله وإن من حقي ان أفعل بحياتي ما أشاء !

– هل انت واثقة من هذا ؟

– كل الثقة لأن حياتي لم تعد نافعة لأحد

– ومن أدراك ؟

– ماذا تعني ؟

– إسمعي ، لسوف أضرب لك مثلاً على ان حياة أي انسان قد تكون

نافعة لإنسان آخر دون ان يدري ، بل قد تكون سبباً في حياة إنسان آخر بلا قصد منه ..

فقد حدث مثلاً ان جاء رجل الى المرتفع ليلقي بنفسه الى البحر .. ولكنه وجد رجلاً آخر جالساً ، ففشل في تحقيق رغبته وعاد من حيث أتى ليعيش ..

فما معنى هذا ؟

معناه ان الرجل الثاني ، أنقذ بلا قصد او غرض حياة الرجل الأول . أي ان وجود الرجل الثاني على قيد الحياة كان السبب في إنقاذ راغب الانتحار من الموت .

وأنت مثلاً ، ألا يمكن ان تكوني ماشية في الطريق ، في زمان محدود في مكان معين أثناء انطلاق جواد جامح ويوشك هـذا الجواد ان يدوس بسنابكه طفـلا يحبو لكنه ، اي الجواد ، يراك فينحرف نحوك ، فتستطيعين انت ان تتجنبي خطره .

وبذلك ينجو الطفل بسبب وجودك حية ، ثم يعيش ليصبح مخترعـاً عظيماً ، او طبيبا نابغة يكشف علاجـا لمرض السرطان او عقاراً مثـل البنسلين ومشتقاته !

– انك رجل عجيب ، لم يخطر ببالي ابداً ان افكر في مثل هـذا الذي تقول .

ثم اردفت قائلة بعد برهة صمت :

– والآن ماذا تريد مني ؟

– اريد منك فقط ان تعديني بألا تفعـلي بنفسك شيئا لمدة أربع وعشرين ساعة .

– حسنا لك هذا.

– لي رجاء آخر ، هو ان تتركي مصراع النافذة التي دخلت منهـا

الليلة مفتوحا من الداخل ، كما حدث الليلة تماما ، وارجو ان تكوني في انتظار شخص ما .

فحملقت في وجهه مدهوشة ، ثم أومأت أخـيراً برأسها .. وهنا نهض ساتروبت قائلا :

ـ الآن يجب علي ان انصرف ، بارك الله فيك يا عزيزتي .

* * *

ولما دخل الى الفندق ، كان الليل قد ارخى على العالم أستاره ، وهناك في شرفة الفندق رأى شخصا يجلس في منعزل . فتقدم اليه وهو يشعر أن مصير شخصين قد اصبح بين أنامل اصابعه ، وان اقل خطأ في التصرف قد يأتي بنتيجة عكسية .

قال ساتروبت بهدوء :

ـ جو لطيف الليلة ، لقد نسيت نفسي وأنا جالس في ذلك المرتفع .

فقال الرجل الذي لم يكن غير انتوني كوردين :

ـ هل كنت فوق المرتفع كل هذا الوقت ؟

فأومأ برأسـه ، وبغتة قـال انتوني ، وهـو يزم شفتيـه في تصميم رهيب :

ـ لسوف أتمشى بعد العشاء على الشاطىء .. أتفهم ؟ إن المرة الثالثة ستكون الأخيرة . وإني لأرجوك بحق السماء ألا تتدخـــل فأنا اعرف انك تبغي الخير لكني اؤكد لك ان تدخلك لن يجدي .

فنهض ساتروبت وشد قامته قائلا :

ـ اني لا اتدخل في شؤون الغير ابداً . لكن .. لكن الأحداث احيانا

او الفضول احيانا ، يرغم الانسان على تصرفات لم تكن تخطر بباله ؛ فمثلا حدث الليلة ..

ثم جلس وصمت .

فقال انتوني :

ــ ماذا حدث الليلة ؟

ــ بينما انا في طريق العــودة ؛ نظرت للمرة الألف الى ذلك القصر الصغير فوق التلة .. وللمره الألف تساءلت عمن قد يكون مقيما فيه ؟ ثم دفعني الفضول إلى تصرف خاطىء واذا أنا احاول فتح مصراع خشبي للنافذه الأرضية .

ــ هل فعلت هذا حقا ؟ لا شك انك وجدته مغلقا ؟

ــ لا .. وجدته مفتوحا .. انه مصراع النافذة الثالثة عند الطرف الأيسر من القصر .

فهتف انتوني قائلا :

ــ عجبا . عجبا . انها نفس النافذة التي ..

وتوقف بغتة ؛ لكن ساترويت لمح البريق الذي تـألق في عينيه في تلك اللحظة .

حينئذ نهض وغادر الشرفة مطمئنا .

وفي العاشرة من صباح اليوم التالي ؛ صعد الى حديقة القصر حيث استقبله البستاني العجوز مانويل بوردة عاطرة ثبتها في عروة سترته . وفي وسط الحديقة وقف ساترويت ينظر الى القصر الصغير الجاثم فوق التلة في سكون وهدوء وسلام .

وبغتة فتح باب جانبي من القصر وخرجت منه السيدة التي رآها امس وشرب معها الشاي .

كانت تتجه اليه بخطوات خفيفة رشيقة كأنها تسير على الهواء او كأنها

انسان يعيش في نشوة حالمة وقد شرب كأس السعادة المترعة فإذا هو يتمايل من فرط الفرح والابتهاج . او كأنها زهرة اضناها الجفاف فأسعدهـــا الطل والندى فإذا هي انضر وأبهى ما تكون .

فأقبلت عليه كأنها البهجة مجسمة ؛ ووضعت يديها على كتفيه وقبلته في حب واعتراف بالجميل فأحس بقبلاتها كأنها لمسات الورد النضير والزهر الناعم العاطر والنسيم العذب في يوم حار .

فقالت له بصوت متهدج :

– لشد ما انا فرحة .. لشد ما انا فرحـــة يا عزيزي كيف عرفت ؟ كيف أمكنك ان تعرف انه هو ؟ يخيل لي انك ساحر عجيب .

ولهثت انفاسها من فرط الفرح وهي تردف قائلة :

– لسوف نذهب اليوم الى القنصل لنعقد الزواج . وحـــين يأتي ابننا جون سيجد اباه في انتظاره . ولسوف نقول له اننا افترقنا قبل مولده .. واخيراً جمعت الأقدار بيننا وتم الصلح ولن يسأل كثيراً عن اسبـــاب الخصام حتى لا يحرجنا .

آه ! ما اشد سعادتي .. ما اشد سعادتي ..

وكانت البهجة حقا تشع منها وتنتشر حالها كأنها العطر العذب المنساب من أجمل الورود واعطرها .

وعادت تقول :

– لشد ما كانت بهجة انتوني عندما عرف ان له ولداً . لم يخطر ببالي انه سيهتم بالأمر كل هذا الاهتمام . من كان يصدق ان الحياة كانت تدخر لنا كل السعادة في النهاية ؟

فقال لها بلطف :

– لسوف تسدين اليه اعظم خدمة اذا انت ملأت حياته بالبهجـــة في الأشهر القليلة القادمة .

فبرقت عيناها بالدهشة ثم قالت بصوت كله التصميم :

ـ أوه ! أتعتقد إني سأتركه يموت بعد ان انتظرته كل هذه السنين ؟.
لا .. لا ، هذا هو المحال . إن مئات من الأطباء يخطئون في كل أنحاء العالم ، وفي كل يوم . وإن مئات من الأطباء يفقدون الأمــل في حياة مئات المرضى كل يوم ، ولكن الأقــدار تسخر منهم ويموت الطبيب ويعيش المريض .

فنظر اليها . وتأمل وجهها الجميل المفعم بالحيوية وقوة الارادة والتصميم وحب الحياة وأومأ أخيراً برأسه ..

نعم ، إنه هو ايضاً يعرف أطباء أخطأوا التشخيص وفقدوا الأمل لكن المريض عاش واسترد صحته

وعادت تقول :

ـ أتعتقد إني سأدعه يموت؟

ـ لا .. بل أعتقد ان حبك سيمد في أجله ويطيل في عمره .

* * *

واخيراً عاد في طريقه إلى المرتفع الصخري بين اشجار السرو . وهناك على مقعده الاثير وجد شخصاً كان يتوقع ان يلتقي به إنه مستر كوين الذي نهض باسماً في حزن وقال وهو يحييه :

ـ هل كنت تتوقع رؤيتي ؟

ـ نعم .

وجلسا معاً .

فقال مستر كوين :

– يبدو من ملامح وجهك انك ، مرة أخرى ، لعبت دور العناية الإلهية في حياة إثنين من المحبين .

- إنك تقول هذا و كأنك لا تعرف شيئاً مما حدث

– الواقع اني جئت هنا لأؤدي مهمة خاصة .

- لمن ؟

- لرجل مات . فأنا كما تعرف احد المدافعين عن الموتى ..

- إني لا أفهم .

فأشار مستر كوين إلى مياه البحر الثائر وقال :

– لقد غرق رجل هنا منذ اثنين وعشرين عاماً .

– أنا أعرف هذا ، ولكني لا أفهم ..

– لنفرض رغم كل شيء ان ذلك الرجل كان يحب زوجته إلى حد الجنون . ومن الممكن ان يحيل الحب الجنوني الرجل إلى ملاك او إلى شيطان . لقد أحبته الزوجة الشابة حب العذراء ، لكنه لم يستطع هو ان يوقظ أنوثتها او يرضيها .

وهذا العجز جعله يشعر بالغضب على نفسه وعلى الناس جميعاً ، وعليها هي أيضاً ، فراح كالمعتاد في هذه الحالات يتلذذ بتعذيبها ، لأنه يحبها . وهذا ما يحدث دائماً وانت تعرفه كما أعرفه انا .

– نعم ، نعم .. انا أعرف أحداثاً كهذه لكنها نادرة جداً .

– وأنت تعرف ايضاً ان الإنسان في كثير من الاحيان يندم على ما فعل ، ويشعر بالرغبة في تعويض الحبيبة عما فعله بها من شر بأي ثمن .

- لكنه مات قبل .

– مات ؟ ما معنى قولك انت مات ! كل ما في الأمر انه انتقل من حياتنا هذه إلى حياة اخرى ، ولا شك انك تؤمن بتلك الحياة الأخرى بعد الموت . ومن يدريك إن الروح في هذه الحياة الأخرى لا يكون لها

نفس المشاعر والرغبات والآمال ؟ فإذا كانت الرغبة قوية بما فيه الكفاية ، فإن في مقـدورها ان تجد وسيـلة لتحقيقها عن طريق شخص آخر لم يمت بعد .

وساد الصمت برهة طويلة ثم قال ساتروبت وهو ينهض :

ـ إني ذاهب إلى الفندق فهل تأتي معي ؟

ـ لا ، إني عائد إلى المكان الذي جئت منه .

ولما التفت ساتروبت وراءه ، شاهـــد مستر كوين وهو يسير مبتعداً على حافة المرتفع الصخري .

— ٤ —

صوت في الظلام

قالت الليدي سترانلي للمستر ساتروبت :

— إنني أشعر بالقلق على مارجري ، إبنتي كما تعرف وإن الانسان ليشعر بهذه الشيخوخة البغيضة ، إذا كانت له إبنة شابة في مثل عمر مارجري .

فقال ساتروبت مجاملا :

— إن من يراك لا يصدق ان لك إبنة شابة .

— اوه ! مجرد مجاملة

فنظر ساتروبت إلى الليدي في إعجاب ودهشة ، فقد كانت تبدو رغم تجاوزها الخمسين من العمر في سن الصبا والشباب ولا شك ان صالونات التجميل في كل أنحاء اوروبا ظفرت منها بأموال طائلة .

وكانا جالسين تحت مظلة على شاطىء البحر بمصيف « كان » وعادت الليدي تقول وهي تضع ساقاً على ساق وتشعل سيجارتها بقداحة ذهبية مرصعة :

- نعم إني أشعر بالقلق على ابنتي مارجري .

- لماذا ؟ ماذا حدث ؟

- انك لم ترهـا ؟ اليس كذلك ؟ إنها ابنتي من زوجي السـابق تشارلس .

وكان ساترويت يعرف ان الليدي ستراتلي تتخذ من الزواج هواية ونوعاً من اللهو ترجي به وقت فراغها . وقد تزوجت أربعة رجال مات أحدهم ، وطلقت الباقين .

وبعد برهة من الصمت تنهدت الليدي وقالت :

- إن مارجوري أصبحت ترى وتسمع أشياء غامضة ..أشباحاً أو اشياء من هذا القبيل . إنها فتاة عاقلة متزنة لا تتردد على الحفـــلات ولا تهفو إلى السهرات الصاخبة ، او بمعنى أصح فتاة من الطراز القديم تحب فقط ركوب الخيل والصيد والبقاء في قصرنا بانجلترا .

وأرسلت أنفاساً من سيجارتها في الهواء .

ثم عادت تقول :

- إنني اشعر بالقلق عليها ، لأن سماع الأصوات الغامضـة خطيرة على قرب الإصابة بالجنون . والواقع ان قصرنا « أبوت ميد » كان مسكونـــاً بأحد الأشباح . ولكنه هدم تماماً في عام ١٨٣٦ وأعيد بناؤه على الطراز الفيكتوري القديم ، واعتقد انه لا يمكن ان يكون مقراً لأي شبح ، لانه عادي البناء قبيح الشكل .

فابتسمت الليدي وقالت بغتة :

- خطر لي انك ربما استطعت ان تساعدنا .

- أنا ؟

- نعم انك عائد غداً الى انجلترا اليس كذلك ؟

- نعم ، نعم .

ـ وأنت تعرف الشيء الكثير عن هؤلاء المتهمين بتحضير الأرواح وما الى هذا .. لا شك في ذلك ، فأنت تعرف معظم النـــاس ، في كل مكان .

فحاول ساترويت ان يقول شيئاً ، لكنها قاطعته بقولها .

ـ حسناً ، إتفقنا . انك رجل ممتاز يا مستر ساترويت . آه ، هـذا هو بيمبو .

فرأى ساترويت شاباً في نحو الثلاثين من عمره ، يحمل مضرب التنس ويتقدم نحو الليدي سترانلي ، وكانت هي تبتسم له في اغراء واعجاب وتقول :

ـ انه مدربي في رياضة التنس ، وهو شاب رقيق لطيف يعرف كيف يختار أجمل الألفاظ في حديثه . هاللو بيمبو .

وانطلقت الليـدي الى الشاب ، تاركة مستر ساترويت ، يقـول لنفسـه :

ـ ترى هل سيكون بيمبو هذا هو الزوج الخامس ؟

* * *

وفوجيء مستر ساترويت وهو في القطار برؤية مستر كوين جالساً في نفس المقصورة فأشرق وجهه ابتهاجاً وقال :

ـ ما أعجب والطف هذه المصادفة يا عزيزي مستر كوين ؟

ـ نعم يا مستر ساترويت انها مصادفة لطيفة حقاً .

ـ انك عائد الى انجلترا على ما أعتقد ؟

ـ نعم ، في مهمة خاصة .

فقال ساترويت في شيء من الزهو :

ـ وأنا أيضاً ، عائد في مهمة خاصة . لعلك تعرف الليدي سترانلي ؟

فلما هز مستر كوين رأسه تابع ساترويت قائلاً :

ـ انها تحمل لقباً قديماً ، قديماً جداً ، من الألقاب التي يتوارثها أفراد الأسر جيلاً بعد جيل ، الأكبر فالأكبر من أفرادها ، وهي تحمل لقب بارونة بالوراثة المطلقة .

وتراخى مستر كوين في مقعده ، وهو يمسك كأس شرابه ويتأمله ، ثم قال :

ـ يبدو انك ستخبرني تاريخ أسرة عريقة يا مستر ساترويت ، ولا شك انه تاريخ طريف مثير اليس كذلك ؟

فأشرق وجه مستر ساترويت بالرضا وهو يقول :

نعم ، نعم .. انها ، هذه الليدي سترانلي امرأة مدهشة ، في الستين من عمرها ، ومع ذلك فلو رأيتها لما حسبتها تجاوزت الأربعين ، جميلة ناعمة البشرة متألقة العينين وكنت أعرفها ، هي وأختها الأكبر منها بياتريس ، منذ كانتا في سن الصبا : بياتريس ، وبربارا . كانتا شابتين جميلتين ، فقيرتين في ذلك الحين لكن هذا كان منذ عهد بعيد .

نعم ، فقد كنت انا أيضاً في ذلك العهد شاباً وسيماً ، موفور الحيوية والصبا

وكان بينهما وبين اللقب والثروة أشخاص كثيرون من أفراد الأسرة . وكان حامل اللقب والحائز على الأملاك كلها اللورد سترانلي ابن عم أبيهما . وشاء القدر ان يموت أخواه وابن عم له .

ثم حدثت كارثة الباخرة يوراليا ، هل تذكر مأساة غرقها ؟ لقد هوت الى قاع البحر بالقرب من شاطىء نيوزيلاند .

وكانت الفتاتان من بين ركابها ، وقد غرقت الاخت الكبرى بياتريس ، ونجت بربارا ، الأخت الصغرى .

وبعد ستة أشهر من الكارثة مات اللورد سترانلي العجوز ، فورثت بربارا اللقب والثروة الضخمة . وراحت ، منذ ذلك الحين ، تعيش من أجل شيء واحد فقط نفسها !

لقد ظلت دائماً الفتاة التي تعرف كيف تمتع نفسها بكل أطايب الحياة ، وكيف تفكر فقط في مباهجها وسعادتها ، وكل ما يخصها دون الآخرين .

وتزوجت أربع مرات ، وأعتقد انها في الطريق للزواج من الخامس الآن .

وبعد ان ذكر المستر كوين تفاصيل المهمة التي يسافر من أجلها ، الى انجلترا

استطرد قائلاً :

– وسأمضي فوراً الى قصر « أبوت ميد » لأزور الابنة الشابة مارجوري ..

فأنا اشعر انه ينبغي مساعدة هذه الابنة في محنتها .. ما رأيك ؟ أتأتي معي ؟

– أعتقد انني لن أستطيع ، لكن اليس قصر « أبوت ميد » يقع في إقليم ويلشير ؟

– نعم .

– حسناً ، لسوف أكون مقيماً في فندق صغير بالقرب من مزارع القصر ، يدعى فندق « بيلز اند موتلي » ولا شك انك تعرفه لأننا التقينا فيه مرة .

– هل سأجدك فيه إذا أردت مقابلتك ؟

ـ نعم .. سأقضي فيه أسبوعـــاً او عشرة أيام ، وسوف تجدني في انتظارك هناك .

* * *

قال مستر ساترويت في صوت كله رفق وتلطف :

ـ تأكدي ، يا عزيزتي مـــارجري ، إنني آخر من يضحك ، من مخاوفك .

وكان جالساً مع مارجرى جيل في البهو الكبير المريح بقصر « أبوت ميد » ، وكانت هي فتاة طويلة القامة ، ملفوفة الجسم ، سوداء الشعر ، أقرب ما تكون شبهاً بأبيها الذي كان عمدة البلد ، مشهوراً بالقـــوة والحزم والتصميم

وكانت تبدو في نضـارتها وصباها واتزان تفكيرها ، أنموذجاً للعقل والحكمة .

ومع هذا فقد تذكر مستر ساترويت ان أفراداً في أسرتها كانوا يعانون من اضطرابات عقلية ..

فلعل مارجري قد ورثت عن أبيها قوة الجسم ونضارته ، وعن أمها بعض الاضطرابات العقلية .

فقالت مارجري :

ـ أتمنى لو عرفت كيف أتخلص من تلك المرأة كاسون ، فأنا لا أؤمن بتحضير الأرواح ولا أحب هذه العملية إطلاقاً ، لكنها متصلبة متعصبة لآرائها ، وهي تصر على استحضـــار وسيطة روحية ، للتخلص من تلك الأصوات الخفية

فتململ ساتورويت في مجلسه برهة ..

ثم قال وهو يتنحنح :

– أرجو اولاً ان ألم بكل الحقائق الأولية . لقد بدأت تسمعين هذه الأصوات الخفية منذ شهرين ؟ اليس كذلك ؟

– نحو ذلك ! وأحياناً كنت أسمعها خافتة هامسة وأحياناً واضحة قوية ، لكن الكلمات كانت هي هي دائماً .

– ماذا كنت تسمعين ؟

– « أعيدي ما ليس لك .. أعيدي ما سرقت » ! وفي كل مرة كنت أضيء الغرفة فلا أجد أحداً . وأخيراً اضطربت أعصابي ، جعلت كلايتون وصيفة أمي تنام على أريكة معي في نفس الغرفة .

– ومع ذلك كنت تسمعين الصوت كالمعتاد ؟

– نعم وهذا ما يفزعني لأن كلايتون لم تكن تسمع هذا الصوت ولهذا السبب نصحتني بعرض نفسي على طبيب لكنها بعد الذي حدث في الليلة الماضية بدأت تلتمس لي العذر .

– وماذا حدث في الليلة الماضية ؟

– كنت سأخبرك به ، رغم اني لم أخبر أحداً قط . كنت طول يوم أمس أمارس رياضة الصيد ، ومن ثم استغرقت في نوم عميق من فرط التعب والإجهاد .

رأيت في المنام حلماً رهيباً . رأيت اني أقع على حاجز حديدي مدبب ، وان أحد قضبانه المدببة دخل في عنقي ، وان ذلك الصوت الخفي يقول لي :

« أعيدي ما سرقته مني ، وإلا فالموت لك » .

فصرخت في فزع ، وضربت الهواء بيدي ، لكني لم أجد شيئاً .. واستيقظت كلايتون على صرختي وكانت نائمة في الغرفة التالية مباشرة ،

فأسرعت إلي ، وشعرت بوضوح بشيء ما يلامسها ، وهو يخرج من الغرفة ، ولكنها تؤكد ان هذا الشيء ، أياً كان ، فلن يكون مخلوقاً آدمياً .

فحملق مستر ساترويت في وجه مارجري ، وأمارات الدهشة بادية على وجهه .

ثم تحولت نظراته إلى ضمادة صغيرة تخفي جرحاً في عنقها ، فأومأت برأسها وقالت :

- نعم .. هذا هو أثر ذلك السن المدبب الذي شعرت به أثناء الحلم ، ومعنى هذا ان الأمر ليس مجرد أوهام فقط .

هل هناك أحد يكرهك او يحقد عليك ؟

- لا طبعاً ! لماذا ؟

- لا شيء مجرد سؤال . هل كان لديك ضيوف يقيمون معك في القصر خلال الشهرين الماضيين ؟

إن مارسيا كين ، هي من أعز صديقاتي ومن هاويات ركوب الخيل مثلي ، هي فقط التي أقامت ولا تزال تقيم معي هنا منذ أكثر من شهرين ، وهناك ابن عمي رولي فافوزوار الذي يقضي معنا أياماً كاملة ، بين الحين والآخر .

هذا عدا ضيوف نهاية الأسبوع كالمعتاد

فأومأ ساترويت برأسه ، ثم اقترح ان يرى الوصيفة كلايتون ، وهو يقول :

- أعتقد انها كانت معك منذ أمد بعيد ؟

- نعم .. فقد كانت وصيفة لأمي وخالتي بياتريس عندما كانتا شابتين وهذا على ما أعتقد ، ما جعل أمي تحتفظ بها ، رغم انها تستخدم لنفسها وصيفة فرنسية خاصة . وان كلايتون تقوم الآن بأعمال الخياطة ،

وبعض الأعمال الخفيفة في القصر .

ونهضت مارجري فمضت مع مستر ساتروبت إلى الطابق الأعلى من القصر ولم تلبث الوصيفة كلايتون ان اقبلت .

فرآها ساتروبت سيدة عجوزاً ، طويلة القامـــة ، نحيلة الجسم ، تفرق شعرهـا الأشيب من الوسط بعناية ، وتبـدو نموذجـاً للوقار والثبـات .

وقد قالت مجيبة على أسئلة ساتروبت :

– لا يا سيدي ، إني لم أسمع أبداً ان هذا القصر « مسكون » بشبح . والواقع إني ظننت مس مارجري واهمة تماماً حتى رأيت ما حدث بالامس . فقد أحسست فعلا بشيء يلمسني ، وهو يسرع في الظلام ، شيء لا يمت إلى البشر أبداً !.

ثم هناك أيضا ذلك الجرح في عنقها . فليس من المعقول ان تكون قد فعلت هذا بنفسها !

لكن هذه الكلمات الاخيرة جعلت مستر ساتروبت يتساءل :

– هل يمكن ان تكون مارجري قـــد جرحت نفسها حقا حتى تثبت للجميع انها ليست واهمة ؟

لقد سمع عن حالات كثيرة كانت فيها كل فتاة تبدو عاقلة مثل مارجري ومع ذلك ترتكب مثل هذه الحماقات .

فقالت كلايتون :

– إنه جرح بسيط ، فسوف يلتئم بسرعة .. وليس مثل هـذا الجرح .

فأشارت إلى أثر جرح في جبينها ..

وتابعت تقول :

– لقد أصبت بهذا الجرح ، منذ أربعـين عـاما ، ولا زال أثره

باقيا .

فقالت مارجري :

– أصيبت عندما غرقت الباخرة بوراليا ، وذلك عندما سقط على رأسها قضيب حديدي، اليس كذلك يا كلايتون ؟

– نعم يا آنستي .

فقال ساتروبت :

– وما رأيك الخاص في هذا الموضوع يا كلايتون ؟ أعني موضوع المس ماجري جيل ؟

– إني في الواقع أفضل ألا أقول شيئا .

– لماذا ؟

– لاني أعتقد ان ظلما كبيراً حدث في هذا القصر ، وحتى يرتفع الظلم ويعود الحق إلى أصحابه فلن يكون هناك راحة او سلام .

وكانت وهي تقول هذا تنظر إلى وجه ساتروبت في ثبات ، بعينيهما الزرقاوين الباهتتين

* * *

هبط إلى الطابق الارضي ، وهو غير مقتنع برأي كلايتون في أن « ظلما كبيراً وقع في هذا القصر » .

فخطر له أن هذه الظاهرة الخفية لم تحدث إلا منذ شهرين ، أي منذ إقامة مارسيا كين ، صديقة مارجري في القصر ، ومنذ ان أخذ إبن العم رولي فافوزوار يتردد كثيراً للاقامة فيه .

ومن ثم قرر ان يعرف الشيء الكثير عن هذين الشخصين ولعل الامر

كله لا يعدو ان يكون دعابة من النوع الثقيل .

ووجد مارجري تفتح الخطابات الوارده اليها في ذلك اليوم ، فلما رأته قالت له في دهشة .

– إن أمي غريبة الاطوار في رسالتها هذه . إقرأها !

فقرأ في الرسالة ما يلي :

« حبيبتي مارجري

« سرني ان المستر ساترويت ينزل ضيفاً عليك فهو يعرف الكثيرين من المشتغلين بالمباحث الجنائية ، ويمكنه الالتجاء اليهم ليكشفوا عن سر هذه الأصوات الخفية التي تسمعينها . وأتمنى لو اني بجانبك ، لكني أشعر من هذه الأيام الأخيرة بتوعك مستمر في صحتي ، ويبدو ان الفندق قد أصبح يهمل كثيراً في إعداد الطعام ، فإن الطبيب يقول : إني أعاني من تسمم بطيء . والواقع اني كنت منذ ثلاثة أيام مريضة جداً .

« أشكرك على هدية الشكولاته التي بعثتها إلي .

« وعلى الجملة إنني الآن بخير ، ويقول بيمبو إني أتقدم كثيراً في رياضة التنس .. تحياتي اليك .. »

فسألها ساترويت بغتة :

– هل بعثت اليها حقاً هدية من الشكولاته ؟

– لا . وهذا ما يثير دهشتي من خطابها. لا شك ان شخصاً ما بعث اليها هذه الهدية .

فأومأ ساترويت برأسه وهو يربط في ذهنه بين الشكولاته المرسلة من شخص مجهول ، وبين التسمم البطيء الذي عانت منه الليدي سترانلي وظنت ان طعام الفندق هو السبب .

وهنا أقبلت فتاة طويلة خمرية اللون من غرفة الجلوس وانضمت اليهما ، فعرف ساترويت حين قدمتها مارجري اليه ، إنها الصديقة مارسيا كين ،

وقد نظرت اليه في شيء من الدعابة والتهكم .

فقالت بصوت ممطوط :

– هل جئت للايقاع بشبح مارجري الأليف ؟ إننا جميعاً مهتمون بأمر هذا الشبح . آه .. ها هوذا رولي .

وتوقفت أمام القصر سيارة هبط منها شاب طويل ذهبي الشعر ، كثير الحركات

فهتف بمارجري قائلاً :

– هاللو مارجري ! هاللو مارسيا ! لقد جئت اليكما بالمدد لمقاومة الشبح !.

ثم استدار إلى امرأتين كانتا تدخلان معه القاعة ..

فتابع يقول :

- أرجو أن تنجحا في هذه المقاومة الليلة .

فعرف ساترويت ان إحداهما هي مسز كاسون التي حدثته مارجري عنها منذ لحظات

فقالت هذه السيدة وهي تبتسم :

– أغفري لي مس مارجوري ، فقد أصر المستر فافوزوار ان نجرب استخدام الأرواح لطرد هذا الشبح . ولهذا جئت معي بالمسز لويد ، الوسيطة الروحية .

فانحنت مسز لويد تحية للجميع ، وكانت شابة من النوع العادي تكثر من وضع المساحيق على وجهها ، وكانت تتزين بقلادة من أحجار القمر ، وعدد من الخواتم .

ولاح على مس مارجري بوضوح انها لم تبتهج لحضور مسز لويد هذه ، وإنما القت نظرة غاضبة على رولي فافوزوار ، الذي لم يبد انه شعر بارتكاب أي خطأ .

وأخيراً قالت :

- إن طعام الغداء معد ، هلم اليه .

فلم تتناول الوسيطة الروحية غير الفاكهة أثناء وجبة الغداء . وقبيل الفراغ من تناول الطعام ، القت برأسها إلى مسند المقعد ، وقالت وهي تتشمم الجو :

- أشعر أن في هذا القصر شيئاً ليس كما ينبغي !

وتمتمت مسز كاسون في ابتهاج :

- اليس هذا رائعاً يا عزيزتي مارجري ؟

وعقدت جلسة تحضير الأرواح في غرفة المكتبة ، وبعد اتخـاذ الترتيبات الدقيقة لعقد الجلسة ، أعلنت الوسيطة الروحية إنها مستعـدة للبدء ، ثم قالت :

- إننا هنا ٦ أشخاص ، يحسن ان نكون ٧

فاقترح رولي إحضار أحد الخدم ، لكن مارجري طلبت إحضـار الوصيفة كلايتون ، وهنـا لاحظ ساترويت إمارات الاستياء على وجه الشاب الذي قال :

- لكن لماذا كلايتون بالذات؟

فقالت مارجري ببطء :

- إنك لا تحب كلايتون .

- الواقع انها هي التي لا تحبني ، وعلى كل حـال ، إنني لا أعارض في حضورها .

وتم عقد الجلسة ، وأسدلت الستائر الكثيفة ، وبعد برهة من الصمت سمع الجميع نقرات متتابعة ، وإذا بروح هندي أحمر تتحدث عن طريق الوسيطة :

- المحارب الهندي يحييكم أيها السادة والسيدات . هنا بجانبي روح تريد

أن تتحدث في لهفة . تريد أن تبلغ رسالة لمس مارجري .

وبعد برهة من الصمت سمع الجميع صوتاً نسائياً ناعماً يقول :

– هل مارجري موجودة؟

فقال رولي فافوزوار :

– نعم .. من التي تتكلم ؟

– إنها خالتها بياتريس .

وهنا بدأ الاهتمام الشديد على وجه مستر ساترويت وهو يصيخ السمع . فعاد الصوت النسائي الخافت الناعم يقول :

– أنا بياتريس التي غرقت مع البـــاخرة يوراليا .. ولدي رسالة يجب ان أبلغها لابنة اختي ، المس مارجري : « أعيدي ما ليس لك لأصحابه » .

فقالت مارجري في تخاذل واستسلام :

– إني لا أفهم شيئاً . هل أنت حقاً خالتي بياتريس ؟

فأسرعت مسز كاسون تقول محذرة :

طبعاً هي .. لا ينبغي أن ترتابي في شخصيـة الأرواح ، فإنهم لا يحبون هذا .

وبغتة ومضت بذهن مستر ساترويت فكرة لحظة جعلته يقول :

– هل تذكرين مستر بوتا كيتي ؟

وسرعان ما سمع ضحكة خفيفة أعقبتها هذه الكلمات :

– آه ، المسكين بوتابسيتي .

فذهل مستر ساترويت . لأن معنى كلمة بوتابسيتي « القارب المقلوب » . وكان هو وبربارا وبياتريس يقيمون في نفس المصيف برايتون ، منذ أربعين عاماً ، وقد حدث ان صديقاً إيطاليـاً شاباً خرج إلى البحر في زورق صغير إنقلب به .

وقد أطلق عليه الجميع بعد ذلك اسم بوتابسيتي . ولم يكن في الغرفة أحد يعرف هذه الحادثة التي مضى عليها أربعون عاماً . ومعنى هذا ان الروح نجحت في الاختبار .

وتململت الوسيطة في مجلسها ، وغمغمت بكلمات غامضة ، وهنا قالت مسز كامسون :

– هذا يكفي الآن . ان الوسيطة الروحية توشك ان تفيق.

وسرعان ما انسكب ضوء النهار مرة اخرى في قاعة المكتبة ، حيث كان الجميع جالسين ، وحيث ظهر بوضوح ان اثنين منهم شعرا بالخوف الشديد .

ورأى مستر ساترويت على وجه مارجري الشاحب امارات القلق والاضطراب .

فلما انفرد بها في غرفة خاصة قال لها :

– أريد ان القي عليك سؤالاً او اثنين يا مس مارجري . إذا توفيت انت ووالدتك فمن الذي يرث اللقب والأملاك كلها ؟

– رولي فافوزوار لأنه ابن عم أمي مباشرة .

فأومأ برأسه ثم قال :

– إنه يتردد عليك كثيراً هذا الشتاء . فهل هو . يحبك ؟

– لقد عرض علي الزواج منذ ثلاثة أسابيع ، لكني رفضت .

– أرجو أن تغفري لي فضولي ، إذا قلت : هل تحبين أحداً آخر ؟

فاضطرم وجهها خجلاً ثم قالت :

– لسوف أتزوج نويل بارتون الكاتب . إن أمي تعارضني في هذا ، لكن ما عيب نويل بارتون ، إنه شاب رزين رياضي ، لا مثيل له في ركوب الخيل .

وفي تلك اللحظة أقبل احد الخدم يحمل صحفة فضية عليها برقية .
فلما فضتها هتفت قائلة :
– عجباً ! إن أمي سوف تصل غداً.
وهنا قال ساترويث :
– في هذه الحالة لم يعد لبقائي أية فائدة .. فسوف أعود اليوم إلى لندن .

وأحس ساترويت ، وهو في طريقه إلى لندن ، أن عبئاً ثقيلاً رفع عن كاهله ، ذلك ان عودة الليدي سترانلي قد أعفته من مسؤليته تجاه الإبنة مارجري .

لكنه في قرارة نفسه ، كان يدرك ان شيئاً ما سوف يحدث في قصر « أبوت ميد ».

وقد حدث ما كان يخشاه ..

ففي ذات صباح فوجيء بخبر منشور في صحيفة الدبلي ميجافون مؤداه ان الليدي سترانلي وجدت ميتة في « البانيو » بحمامها ، وإن الفحص الطبي أثبت ان وفاتها نشأت من اسفكسيا الغرق ، وان المرجح انه أغمي عليها أثناء الاستحمام ، ثم انزلق جسمها في « البانيو » حتى أصبح رأسها تحت سطح الماء فغرقت .

لكن مستر ساترويت لم يقتنع بهذا التعليل ، ومن ثم انطلق بسيارته الرولز في الطريق الى إقليم ويلشير .

لكنه لم يمض فوراً الى قصر « أبوت ميد » وإنما عرج على فندق « بيلز آند موتلي » حيث وجد مستر كوين مقيماً به كما وعده .

وبعد ان تصافحا بحرارة ، قال مستر ساترويت في انفعال :

– إني محتاج الى معونتك ، فأنا أشعر في أعماق نفسي ان مارجري جيل معرضة لخطر شديد بعد موت أمها . وهي فتاة طيبة ومستقيمة

ويجب درء الخطر عنها .

– يحسن أن تخبرني بالموضوع كله .

فأخبره ساترويت بالقصة كلها ..

فقال المستر كوين :

– إن عليك ان تكشف الغموض الذي يكتنف هذا الموضوع . فإنك الذي تعرف المقيمين في هذا القصر .

– نعم ! انني أعرف الشقيقتـين بياتريس وبربارا منذ أربعين عاماً . ولا أنسى الأيام التي سعدنا فيها معاً في مصيف برايتـون ، والاسم الذي أطلقناه على ذلك الصديق الايطالي « بوتابسيتي » ..

بل أذكر وصيفة شابة تدعى « اليس » جميلة عذبة كانت معها ، وقد قبلتها ذات مرة في دهليز الفندق وكادت احدى خادمات الفندق ان تضبطنا آه ، ما أجمل أيام الشباب !

وتوقف بغتة ثم تنهد قائلاً :

– كأنك لن تستطيع مساعدتي ؟

– لو اني في موضعك ، لذهبت الى قصر « أبوت ميد » الآن .

– اني ذاهب فعلاً ألا تأتي معي ؟

– لا . ان لدي مهمة خاصة يجب ان أقوم بها هنا .

* * *

وفي « أبوت ميد » جلس مع مارجري في غرفة مكتبتها ، وكانت عندئذ مشغولة بشيء ما .

فلما رأته سرت قائلة :

– أحسنت بالحضور يا مستر ساتروويت . فالواقع اني غير مطمئنة إلى ما حدث لأمي ، إن رأيي الخاص هو ان شخصاً ما ضغط على رأسها تحت سطح الماء حتى غرقت ، وإن الذي قتلها سوف يقتلني أيضاً ، ولهذا فأنا الآن أكتب وصيتي .

ثم أشارت إلى الورقة المكتوبة أمامها وهي تقول :

– لقد رحل رولي فافوزوار ومارسياكين ، وإن اللقب وجزءاً كبيراً من ممتلكاتي ستكون من نصيب رولي بعد وفاتي ، ولكنني أمتلك أموالاً ضخمة ورثتها عن أبي . فسوف أوصي بهذه الأموال كلها إلى حبيبي نويل . وأرجو ان تشهد على وصيتي هذه . أما الشاهدة الأولى فهي وصيفتي كلايتون هذا هو توقيعها .

فأمسك بالقلم ليوقع ، وبغتة قرأ اسم كلايتون كاملاً « اليس كلايتون » فتوقف وقد اعترته الدهشة .

فقد عادت به الذاكرة إلى الوراء أربعين عاماً ، إلى مصيف برايتون ، وإلى الوصيفة الشابة الحلوة « اليس » التي قبلها ذات مرة ، والتي كان معجباً أشد الإعجاب بعينيها العسليتين .

وبغتة أدرك كل شيء ، وإذا هو يستغرق في أفكاره حتى تنبه على صوت مارجري وهي تقول :

– ماذا بك يا مستر ساتروويت ؟

– لا شيء . لا شيء .. ولكنني عرفت الآن كل شيء . يجب أن تعدي نفسك للمفاجأة .

إن السيدة الموجودة هنا باسم الوصيفة « اليس كلايتون » ، ليست هي كلايتون إطلاقاً . إن كلايتون الحقيقية ماتت غرقاً ، في حادث الباخرة يوراليا.

فحملقت مارجري في وجهه ، ثم تمتمت في ذهول .

– إذن من تكون كلايتون الموجودة هنا ؟

– إني واثق الآن تماماً انها . إنها خالتك بياتريس ، الأخت الكبرى لوالدتك . هل تذكرين قولك لي انها أصيبت في الحادثة بوقوع قضيب حديدي على رأسها ؟ .

أعتقد ان هذه الإصابة قد أفقدتها الذاكرة تماماً ، وهنا رأت والدتك الفرصة سانحة فقررت ان . .

– أن تظفر باللقب والثروة . . اليس هذا ما تعنيه ؟

نعم . هذه طبيعة أمي ، رحمها الله ، لم يكن يعنيها شيء . . غير نفسها .

– كانت بياتريس هي الأخت الكبرى التي لها حق الوراثة ، بعد موت عمك الكبير اللورد ستراتلي . كانت سترث كل شيء ، بينما لا ترث أمك شيئاً ولهذا زعمت ان الفتاة الجريحة الفاقدة الرشد ، هي وصيفتها « اليس كلايتون » وليست أختها . واستعادت الفتاة صوابها ، لكنها فقدت ذاكرتها فلم تعرف إلا انها اليس كلايتون كما قالوا لها ، ولكن مع مرور الزمن بدأت ذاكرتها تعود ، ويبدو ان عودة الذاكرة كان مصحوباً باضطراب في عقلها .

فنظرت مارجري في فزع قائلة :

– لهذا قتلت أمي ثم أرادت ان تقتلني ؟

– هذا ما يبدو ، فإن عقلها المضطرب جعلها تلجأ الى هذه التصرفات الغامضة ، وإلى إفزاعك بالأصوات الخفية ، لكي تسترد ممتلكاتها الموروثة منك ومن أمك .

– ولكن . لكن كلايتون تبدو أكبر سناً جداً من أمي ، بينما لم يكن الفارق بينهما غير عامين فقط .

فابتسم ساترويت في إشفاق ثم قال :

ـ هذا هو ما يصنعه المال الكثير ! لقد أبقت الثروة على جمال والدتك ، وكست مباهج الحياة وجهها بالنضارة والصبا . أما بياتريس !. حسناً .. هلم نصعد اليها ..

وهناك في غرفتها الخاصة ، رأياها جالسة بلا حراك في مقعدها الوثير وبين يديها أشغال الابرة .

كان وجهها جامداً شاحباً لا أثر للحياة فيه .

فلما فحصها مستر ساترويت قال في إشفاق :

ـ ماتت بالسكتة القلبية وحسناً فعلت !

- ٥ -

اللوحة

مشى المستر ساتروبت متمهلاً في شارع بوند ستريت ، مستمتعاً بدفء الشمس ، في طريقه إلى معرض هاركستر للصور الفنية ، حيث كان الرسام العبقري الجديد فرانك بريستو ، يعرض أول مجموعة من لوحاته الفنية .

وفيما هو يدخل إلى ردهة المعرض حياه أحد المشرفين على المعرض قائلا :

- طاب صباحك يا مستر ساتروبت ، لقد كنا نتوقع حضورك ، يوماً بعد آخر .. ولا شك انك ستعجب بهذا الفنان الجديد ، أشد الاعجاب

ومضى مستر ساتروبت إلى قاعة العرض الواسعة المستطيلة ، التي علقت اللوحات المعروضة على جدرانها الأربعة ، وراح في إعجاب واضح ، يتأمل اللمسات الفنية الأصيلة البادية في خطوط كل لوحة على انفراد .

وتوقف برهة أمام لوحة تمثل جسر وستمنستر بما عليه من مارة وسيارات خاصة وعامة ومركبات مختلفة الأنواع ، وكان الفنان قد أطلق على هـذه اللوحة اسم « مستعمرة النمل »

ثم تحرك الى اللوحـات الأخرى حتى توقف أمام لوحة جعلته يتسمر في مكانـه .

كانت اللوحة تسمى « موت المهرج » وكانت أرضيتهـا ، او الجزء الأمامي منها ، تمثل أرضية شرفة كبيرة ذات بلاط من اللونين الأبيض والأسود ، وفي وسطها رقدت جثة مهرج ميت في ملابسه الحمراء والسوداء وقد مد ذراعيه على جانبيه ، وفي الجزء الخلفي من اللوحة ، جدار جانبي للشرفة الكبيرة ، فيه نافذة زجاجية ، ومن ورائها بدا وجه ينظر بهدوء إلى « المهرج الميت » .

وأعجب ما في اللوحة أن التشابه كان واضحاً بين الوجه الذي كان ينظر من وراء النافذة وبين وجه « المهرج الميت » . .

فكأنما أراد الفنان أن يرمز لروح الميت حين ترقب الجسد ، بعد انفصالها عنه .

لكن الشيء الذي أثار انفعـال مستر ساترويت ، هـو انه عرف ، أو خيل اليه انه عرف « وجه المهرج الميت » ، لأنه كان يشبه إلى حد كبير وجه صاحبه ذلك الرجل الخفي ، مستر كوين الذى كان يظهر في حياته ويختفي في أوقات معينة .

فقال لنفسه متعجباً :

ـ اني غير مخطىء بالتأكيد ! فما معنى هذا ؟

ذلك ان التجارب أكدت له ان كل مره يرى فيها مستر كوين ، لا بد وان يكون وراء ظهوره سبب معين .

وكان ثمة شيء آخر قد أثار اهتمامه باللوحة ، ذلك انه عرف المكان الذي

ومن ثم عاد يقول لنفسه :

– إنها الشرفة الكبيرة ، في قصر الـلورد شارنلي ؟ عجبـاً !. عجبـاً !

وبعد ان شاهد جميع اللوحات المعروضة ، ذهب إلى مدير المعرض ، مستر كوب ..

فقال له بعد أن تبادل التحية معه :

– بودي ان أشتري اللوحة رقم ٣٩ ، إذا لم يكن أحد قـد سبقني إلى شرائها !

فقال مستر كوب بعد ان راجع دفتره :

– أوه ، لقد عرفت كيف تختار يا مستر ساتروويت .. كلا لم يشترها أحد ، إنها فعلاً تحفة ، وأعتقد انك بعد عام ستجد من يعرض عليك ثلاثة أضعاف ثمنها .

– هذا ما تقوله لي دائماً يا مستر كوب ، اليس كذلك ؟

فابتسم الرجل وقال :

– هل تراني خدعتك ذات مرة ؟ ألم يصدق حدسي دائماً ؟

– نعم ، نعم . أعترف بهذا .. حسناً . سأكتب لك الآن شيكاً بثمن اللوحة .

– انك لن تندم على هذا . فإن بريستو فنان ، سيخلد التـاريخ اسمه !.

– أهو لا يزال بمرحلة الشباب ؟

– إنه في السادسة أو السابعة والعشرين من عمره .

– انني أرغب في مقابلتـه ، ولعله يقبـل دعوتي ، لتنـاول العشاء معي الليلة .

فأومأ المستر كويب برأسه وقال :

– سأعطيك عنوانه ولا شك انه سيبتهج بهذه الدعوة لأنك معروف للجميع كواحد من أنصار الفن والفنانين .

فقال ساترويت وهو يهم بالذهاب :

– إنك تمتدحني أكثر مما أستحق . .

فقاطعه مستر كويب بغتة قائلا :

– ها هوذا قد حضر ، فسأقدمك له فوراً

ونهض عن مكتبه ، وشرع يقدم المستر ساترويت الى الفنان الشاب الوسيم ذي الجسم الكبير والوجه الحالم . . وبعـد التعارف ، قال المستر ساترويت :

– كان لي ، الآن ، شرف شراء لوحتك الرائعـة : « مـوت المهرج » .

فابتسم الفنان الشاب وقال

– أعتقد انك لن تخسر كثيراً من شراء هذه اللوحة ، أعتقد انها جيدة ، وإن كان لا ينبغي ان أقول هذا .

– بل هذه هي الحقيقة يا مستر بريستو ، وإني شديد الإعجاب بلمسـاتك الفنية ، وإني لأرجو ان تشرفني بقبولك دعوتي لتناول العشاء معي الليلة إذا لم تكن مرتبطاً بموعد سابق

– الواقع إني غير مرتبط بموعـد الليلة ، ومن ثم يسرني أن أقبـل دعوتك .

– إذن . هل أنتظرك الساعة الثامنة مساء ؟. هذه بطاقتي وعليها العنوان .

– أوه . . حسناً . . شكراً جزيلا .

فقال ساترويت لنفسه وهو ينصرف :

- إنه شاب عبقري لطيف .. ولكنه ، كما يبدو ، خجول لا يعرف قدر نفسه .

ووصل فرانك بريستو في الثامنة وخمس دقائق مساء ، حيث وجد لدى المستر ساترويت ضيفاً آخر هو الكولونيل مونكتون . ومضى الثلاثة فوراً إلى مائدة العشاء ، حيث كان ثمة مقعد رابع خال قال عنه ساترويت :

- إني أنتظر حضور صديق لي ، يدعى كوين ، هارلي كوين ، هل تعرفه يا مستر بريستو ؟

فاضطرم وجه الفنان الشاب وقال مرتبكاً :

- الواقع انه هو الذي أوحى إلي بفكرة لوحة «موت المهرج » وكان طبيعيا أن يأتي الشبه مماثلا بينه وبين وجه المهرج .

وكان الكولونيل مونكتون يتأمل الفنان الشاب كأنه « نوع جديد من الأسماك النادرة » .

هذا بينما كان ساترويت يقول :

- الواقع ان هذا الشبه هو الذي حفزني على شراء اللوحة ، كما انني أعرف المكان الذي صورته فيه ، إنها الشرفة الكبيرة في قصر اللورد شارنلي ، اليس كذلك ؟

فلما أومأ الفنان برأسه تابع ساترويت يقول :

- لقد نزل في ضيافة اللورد شارنلي بضع مرات قبل مأساته ولعلك تعرف بعض أفراد أسرته .

فقطب بريستو جبينه وقال :

- يؤسفني انني لم أعرف أحداً في هذه العائلة لكن مستر كوين هو الذي اقترح علي رسم تلك اللوحة هناك .

وبعد لحظات من حديث عادي قال ساترويت :

- إن قصر شارنلي من القصور التي تستهوي الناس لزيارتها ، وقد زرته مرة بعد المأساة .

فقال بريستو :

- نعم !. إنــه قصر تاريخي ، يحيــط به جــو من الغموض ، والأسرار ..

فقال الكولونيل مونكتون:

- يقال ان فيه شبحين ، لا شبحاً واحداً .. شبح الملك شارلس الأول يجوب أنحاءه وهو يحمل رأسه تحت ذراعه ، ولا أدري لماذا ؟! وشبح السيدة ذات الوعاء الفضي ، التي يقال أنها ترى دائماً بعد موت أحد أفراد عائلة شارنلي .

وغمغم بريستو متهكماً :

- خرافات !

فقال ساترويت بسرعة .

- إنها عائلة سيئة الطالع . فقد مات أربعة من حاملي اللقب ميتة شنيعة وأخيراً مات اللورد شارنلي منتحراً .

فقال الكولونيل بأسى :

- كانت مأساة مؤلمة ، وكنت هناك عندما وقعت .

فقال ساترويت :

- آه ، نعم كم مضى عليها الآن ؟ نحو أربعة عشر عاماً ، ولا يزال القصر مهجوراً منذ ذلك الحين .

فقال الكولونيل :

- إنني لا أعجب لهذا ، فلا شك ان المأساة كانت صدمــــة قاسية على عروس اللورد الشابة التي لم تكن تجاوزت السابعة عشرة ، والتي لم يكن قد مضى على زواجها باللورد أكثر من شهر ..

وكان اللورد شارنلي قد عاد معها بعد شهر العسل ، وأقام حفـلة تنكرية راقصة احتفالاً بهذه المناسبة .

وبينما كان المدعوون يتوافدون ، إذا باللورد الشاب يدخل إلى الغرفـة المسماة « قاعة السنديان » ويغلقها على نفسه ثم ينتحر ، وكان الحادث شاذاً لا يكاد يصدقه أحد ..

آه ، ماذا تقول ؟

والتفت بسرعة نحو الستار ، ثم نظر إلى ساترويت ، ثم ضحك وهـو يقول معتذراً :

– يبدو ان ذكرى المأساة أثرت على أعصابي ، فقد خيل إلي إني سمعت شخصاً يحدثني من هذا المقعد الخالي .

وتابع حديثه الأول قائلا :

– كانت الصدمة عنيفة على عروس اللورد ، اليس شارنلي . وكانت يومذاك من أجمل الفتيات اللائي يمكن أن يراهن الإنسان في أي مكان .. كانت من النوع الممتلىء بحب الحياة ، وبالرغبة في الارتواء منها . لكنها الآن تعيش كالشبح . إني لم أرها منذ أعوام ، وأعتقـد انها تعيش خارج البلاد معظم الوقت ؟

– والابن ؟

– إنه في كلية أيتـون . ولا يدري أحـد ماذا سيفعل ، حـين يبلغ سن الرشد .. إني لا أعتقد ، على كل حال ، إنه سيعيد فتح أبواب القصر .

وهنا نهض ساترويت وقال :

– هلم إلى غرفة التدخين ، فإن لدي مجموعة من الصور الفوتوغرافية لقصر شارنلي وأحب ان أطلعكم عليها .

وكان من بين هوايات ساترويت هواية تصوير منازل وقصور أصدقائه

من الداخل .

وقد الف في هذا الموضوع كتاباً سماه « بيوت أصدقائي » وقد ابتهج أصدقاؤه بهذا الكتاب وراحوا يتفاخرون باقتنائه .

وقال وهو يسلم بريستو إحدى الصور :

- هذه صورة الشرفة الكبيرة ، وقد التقطتها في العام الماضي من نفس الزاوية التي رسمت منها صورتك . أترى هذه السجادة الصغيرة في جانب من الشرفة ، إنها سجادة رائعة .. كنت أتمنى لو استطعت ان التقطها بشريط ملون .

فقال بريستو .

- إنني أتذكرها ، إنها رائعة اللون حقاً ، كأنها قطعة من النار المتوهجة ، ولكني ألاحظ أن وضعها على أرضية هذه الشرفة الواسعة لا يتلاءم مع الذوق السليم ، لأنها صغيرة جداً بالنسبة لاتساع الشرفة ، حتى بدت كأنها بقعة ضخمة من الدماء على الأرضية ذات اللونين الأبيض والأسود . بل لقد خيل إلي أن وضع هذه السجادة النارية في ذلك المكان يوحي بقسوة المأساة التي حدثت في « قاعة السنديان » المؤدية اليها .

وقال الكولونيل :

قاعة السنديان ! آه ، نعم إنها القاعة المسكونة بالشبح . ويقال ان بين الواح جدرانها لوحاً بالقرب من المدفأة يخفي وراءه مخبأ سرياً ، كما يقال ان تشارلس الأول لجأ الى هذا المخبأ السري ذات مرة . ويقولون أيضاً ان اثنين ماتا فيها أثناء المبارزة بالمسدسات نعم ان ريجي شارنلي انتحر في هذه القاعة نفسها .

ثم تناول الصورة ، من يد بريستو . وأردف قائلاً ، وهو يتأملها :

- عجباً !. إنها السجادة الحمراء الرائعة التي قيل انها تساوي أكثر من

ثلاثة آلاف جنيه ..

وحين كنت هناك ، قبيل الحفلة ، لاحظت انها كانت موضوعة في قاعة السنديان ، وهي فعلاً مناسبة لهذه القاعة .

ولا أدري من نقلها من القاعة إلى هذه الشرفة الواسعة ذات الأرضية الرخامية !

ونظر ساترويت الى المقعد الخالي ، الذي كان قد وضعه إلى جانب مقعده .

ثم قال بشرود ذهن :

- نعم ، من نقلها ، ومتى ؟

فقال الكولونيل :

- أعتقد أنها نقلت من الغرفة إلى الشرفة في نفس يوم المأساة ، لأني أذكر ان شارنلي حدثني عنها وهي لا تزال في الغرفة ، وقال انه يفكر في الاحتفاظ بها داخل خزانة زجاجية حسنة التهوية .

قال ساترويت :

- لقد أغلقت أبواب القصر بعد المأساة مباشرة ، وقد بقي كل شيء في مكانه منذ ذلك الحين .

وفجأة قال بريستو متسائلا :

- لماذا أطلق اللورد شارنلي الرصاص على نفسه ؟

فتململ الكولونيل مونكتون في مقعده وقال :

- لا أحد يعرف السبب .

وهنا قال ساترويت :

- أظن ان الأمر انتحار !

فنظر الكلونيل اليه مندهشاً وقال :

- تظنه انتحاراً ؟ عجباً ! إنه انتحار طبعاً يا عزيزي . لقد كنت حاضراً

في القصر حين وقوع المأساة

فنظر ساترويت الى المقعد الخالي وابتسم لنفسه كأنما يضحك من فكاهة خاصة لا يعرفها أحد .

ثم قال :

– إن الانسان أحياناً يرى بوضوح بعض الجوانب التي كانت غامضة إذا مرت عليها أعوام كثيرة

فقال الكلونيل محتجاً .

– هراء ! هراء تام . كيف يستطيع الانسان ان يرى بوضوح أشياء كانت غامضة بعد مرور أعوام كثيرة ؟

فأيد بريستو رأي ساترويت بقوله :

– إني أدرك ما تعنيه .. ويمكنني القول انك على حق ، فالمسألة تتعلق بما نسميه التوازن . أو حسن التقدير إذا أردت ، او التناسب والنسبية وما إلى هذا .

فقال الكلونيل وهو يتلفت حوله بعنف

– إذا سألتني عن رأيي ، فأنا لا أؤمن بهذه النظريات الغامضة ولا بما يقال عن تحضير الأرواح أو ظهور الأشباح ..

والمهم ان ما حدث كان انتحاراً ، لقد شاهدت الحادث بنفسي ، على وجه التقريب .

فقال ساترويت :

– حدثنا به إذن حتى نراه بعينيك .

فغمغم الكلونيل بكلمات غامضة . ثم اعتدل في مقعده ، وابتدأ الحديث قائلا :

– كان الحادث كله شاذاً غير متوقع . فقد كان شارنلي في حالته العادية ، وكانت الحفلة تضم عدداً كبيراً من المدعوين ولم يكن أحد يتوقع

أبداً ان يمضي اللورد الشاب ويطلق الرصاص على نفسه أثناء توافد المدعوين على القصر .

فقال ساترويت :

– كان من حسن الذوق على الأقل ان ينتظر انصراف المدعوين من الحفلة ثم ينتحر إذا أراد !

– طبعاً ! إن من فساد الذوق ، ان يفعل إنسان شيئاً كهذا ، أيـاً كانت الظروف .

– لم يكن اللورد شارنلي معروفاً بفساد الذوق ؟

– نعم ، بل كان على النقيض ، كان رجلا سليم الذوق مهذب السلوك إلى أبعد حد .

– ومع ذلك فأنت لا تزال مصراً على ان الحادث انتحار ؟

– طبعاً ، طبعاً ! لقد كنا ثلاثة أو أربعة على رأس السلم داخل القصر أنا والآنسة استراندار والجي دارسي ، وواحد او اثنان آخران . واجتاز شارنلي الردهة الواقعة تحتنا في طريقه الى « قاعة السنديان » .

وتقول الآنسة استراندر ان وجهه كان شاحباً مكتئباً ، وان اليأس كان يطل من عينيه ، لكن هذا كله لغو فارغ ، لأنه لم يكن في مقدور أحدنا ان يرى وجهه من مكاننا المرتفع

وكل ما في الأمر انه كان يسير حقاً محني القامة ، كأنما يحمل على عاتقه هموم الدنيا .

ونادت عليه فتاة من المدعوات ، وهي وصيفة سيدة من سيدات المجتمع ، وكانت الليدي شارنلي قد دعتها مع سيدتها بدافع من العطف ، وكانت هذه الفتاة تبحث عنـه لتبلغه رسالة شفـوية ، فلما رأته في الطريق الى « قاعـة السنديان » نادت عليه قائلة :

« لورد شارنلي . ان الليدي شارنلي تريد ان تعلم . »

لكنه لم يحفل بها ، ودخـل الغرفة وصفق البـاب وراءه . وسمعنا صرير المفتاح وهو يغلق الباب على نفسه من الداخل ، ثم اذا نحن بعد لحظة نسمع دوي الطلقة النارية

واندفعنا الى الردهة وكان ثمة باب آخر « لقاعة السنديان » يؤدي الى الشرفة الكبيرة . ولكننا وجدنا هذا الباب مغلقاً من الداخل ؛ فاضطررنا الى تحطيمه

وهناك على أرض القاعة وجدنا اللورد شارنلي جثة هامدة والمسدس بالقرب من يده اليمنى . فكيف يمكن ان يكون الحادث غير الانتحار ؟ ان هنـاك احتمالاً آخر فقط وهو جريمة القتـل ! لكن هل هناك جريمة قتل بغير قاتل ؟

فقال ساترويت .

– ربما هرب القاتل ؟

– هذا هو المستحيل ، لأن قاعة السنديان ليس لها غير بابين فقط ، باب يؤدي إلى الردهة ، وهو الذي دخل منه اللورد شارنلي وأغلقه من الداخل على مسمع منا . وباب يؤدي إلى الشرفة الكبيرة ، وقد وجدناه مغلقـاً أيضاً من الداخل بالرتاج والمفتاح .

– والنافذة ؟

– كانت مغلقة تماماً من الداخل أيضاً

وبعد برهة من الصمت قال الكلونيل :

– هذه هي المسألة كلها !

فقال ساترويت :

– إنها كذلك كما تبدو للجميع ، لكن ..

وعاد الكلونيل يقول

وبمناسبة الحديث عن الأشباح ، يمكنني ان أقول ان الشائعات تدور

حول قاعة السنديان هذه ، ويقال انها مسكونة بالأشباح ، وإن على جدرانها الخشبية كثيراً من الثقوب الناشئة من رصاص المبـــارزات ، وإن كثيراً من المتبارزين ماتوا فيها ، وإن دماء بعضهم تأبى ان تزول من الأرضية رغم تغيير الأخشاب بغيرها . ولا ريب ان هناك الآن بقعة دماء أخرى ، هي دماء المسكين شارنلي

فقال ساترويت :

– هل نزفت منه دماء كثيرة؟

– لا قليلة ، وقد عجب الطبيب لهذا !

– وأين أطلق الرصاص على نفسه ؟ على رأسه ؟

– لا بل على قلبه .

فقال بريستو :

– ليست هذه هي الطريقة السهلة للانتحار ، لأن إطلاق الرصاص على القلب يسبب آلاماً قوية ، وقـد يجعل المنتحر يتعذب قبل ان يلفظ أنفاسه ، وذلك بعكس إطلاق الرصاص على الرأس الذي يؤدي إلى الموت في الحال .

فقال ساترويت :

– بمناسبة ما يقال عن أشبـاح القصر ، هل رأيت يا كلونيل ما يؤكد هذه الشائعات؟

فقال الكلونيل بلهجة التأكيد :

– لا . لكني اظن ان جميع خدم القصر يؤكدون أنهم رأوا شبح السيدة ذات الوعاء الفضي .

ثم أردف قائلا :

– وأنا أرجو الآن ، يا ساترويت ، أن تكون قد تأكدت أن الأمر انتحار .

نعم ، نعم . ولكن هـذا لا يمنع الانسان من التفكير في شـذوذ هذا التصرف .

فلماذا مثلا ، ينتحر شـــاب موفور الثراء رفيع المقام ، حديث العهد بالزواج ، وفي نفس الليلة التي يحتفل فيها بعودته مع عروسه إلى قصره بعد شهر العسل ؟

فقطب جبينه وتابع قائلا :

ولكنه مع هذا مات او انتحر ، وتلك هي الحقيقـة التي لا مفر من الاعتراف بها .

وقال الكلونيل :

– لقد ترددت شائعات كثيرة .. كل أنواع الشائعات طبعاً .

– لكن الحقيقة لم يعرفها أحد بعد !

– نعم .

– والأعجب من هـذا ، ان أحـداً لم يستفد ، من وقوع هـذا الحادث !

– نعم . فيما عدا الجنين ، الذي كانت تحمـــله العروس ، وهي لا تدري .

ثم أرسل ضحكة تهكمية وتابع قائلا :

– والواقع ان مولد هذا الطفل جاء ضربة قاضية لآمال المسكين هيجو شارنلي أخ اللورد المتوفي

فبمجرد ان ثبت ان عروس اللورد حامل ، راح ينتظر ثمانيـــة شهور ليرى هل سيأتي المولود ذكراً أم أنثى ؟ فلو انه جاء أنثى لورث هيجو لقب أخيه وثروته كلها ، لكن شاء القدر ان يأتي المولود ذكراً وأن تضيع آمال هيجو ومن معه .

– وماذا كان موقف الأرملة الشابة ؟

– يا المسكينة ! إني لم أنس منظرها . إنها لم تبك او تنهار ، وإنما بدت كأنها تجمدت وأصبحت كتمثال بلا روح وقد أغلقت أبواب القصر بعد المأساة ، كما عرف الجميع ، وأكبر الظن انها لن تعود للحياة في جوانبه يوماً !

فابتسم بريستو قائلا :

– لا ريب ان وراء هذه المأساة إمرأة في حياة اللورد شارنلي ، او رجلا في حياة أرملته

فقال ساترويت :

– هذا ما يبدو .

وقال الكلونيل :

– لكن المرجح جداً إنها إمرأة في حياة اللورد ، لأن الأرملة لم تتزوج بعده .

وهنا قال بريستو بحماس :

– أياً كان الأمر ، فإني أكره النساء بوجه عام ، إنهن السبب في كل مأساة من هذا النوع ، وأعترف اني لم التق في حياتي بامرأة أثارت خيالي وأسرت عواطفي إلا مرة واحدة ، وقد التقيت بها صدفة في المطار أثناء عودتي من رحلة في شمال انجلترا .

فقال ساترويت :

– نعم ، نعم .. إن أكثر قصص الغرام بدأت بمثل هذا اللقاء في القطارات .

– جلسنا في مقصورة واحدة بمفردنا ، وبدأنا نتحدث معاً منذ اللحظة الأولى ، وأعتقد ان شيئاً من العواطف المتبادلة ربطت بيننا منذ اللحظة الأولى ايضاً ، وأنا لا أعلم اسمها ، بل لا أظن اني سألتقي بها ، مرة أخرى .

واعتقد ، ان الشيء الذي أثار عواطفي نحوها ، ذلك الطابع الروحي العجيب الذي كا يغلفها ، لقد بدت لي كأنها إمرأة خرجت من صفحات إحدى الأساطير .

فأومأ ساترويت برأسه وهو يدرك ان فناناً مثل بريستو لا بد أن يتأثر بامرأة من هذا النوع .

أما بريستو فقد تابع قائلا :

– ويبدو لي ان السر في هذه الشفافية التي تميزت بها انها أصيبت في مستهل حياتها بصدمة رهيبة جعلتها تحاول الفرار من دنيا الواقع إلى عالم الخيال

– هل ذكرت لك شيئاً من مأساتها ؟

.. لا ، ولكنني استنتجت هذا ، فإن على الانسان ان يلجأ الى الاستنتاج أحياناً لكي يصل إلى الحقيقة إذا أراد .

فقال ساترويت ببطء وبلهجة لها دلالتها ·

– نعم ان على الإنسان أن يلجأ إلى الاستنتاج أحياناً .

وفي تلك اللحظة فتح الخادم الباب وقال له :

– إن سيدة تريد مقابلتك ، يا سيدي ، لأمر هام . إنها المس اسبيسيا جلين

فنهض ساترويت بسرعة مندهشاً . لقد كان يعلم من هي اسبيسيا جلين . إنها ممثلة مشهورة في أنحاء لندن ، وقد أطلق عليها النقاد اسم « السيدة ذات المنديل » لأنها برعت في تمثيل أدوار كثيرة بمنديل واحد ، إذ جعلته مرة غطاء للرأس في دور ريفية ، ومرة « كاب » راهبة ، وثالثة « كاب » ممرضة ، ورابعة مطرف بائعة لبن .. وعشرات أخرى من هذه الأدوار

لكنه لم يكن يعرفها شخصياً ، فماذا تود ان تقابله ؟

ومضى اليها حيث كانت جالسة في غرفة الاستقبال في وضع مثير ينم عن كثرة اعتدادها بنفسها وقوة ثقتها في جمالها ، وعمق تأثير شخصيتها في الغير .

كانت طويلة القامة خمرية اللون في نحو الخامسة والثلاثين من عمرها ولكن جمالها المذهل جعلها تبدو أصغر من هذه السن .

قالت له بصوتها الجذاب

- إني اعتذر لك عن هذه الزيارة المفاجئة يا مستر ساترويت ، ولولا ان الأمر لا يحتمل التأخير لطلبت تحديد موعد من قبل .

ثم أردفت قائلة :

- الحقيقة اني كنت أريد ان أتعرف بك منذ مدة طويلة ، ومن ثم فإني مبتهجة بهذه الظروف التي دفعتني للحضور .

والواقع اني إذا أردت شيئاً ، فإني أحب الحصول عليه فوراً ، لأني لا أطيق الانتظار .

فقال ساترويت :

- أياً كان السبب الذي دفعك الى الحضور .. فإني سعيد به يا مس جلين ، واني أنتهز هـذه الفرصة لأعرب لك ؛ عن إعجـابي الشديد ؛ بمواهبك ..

فنظرت اليه باسمة وقالت بعد ان شكرته :

- اما عن سبب حضوري فهو لوحة « موت المهرج » . لقد رأيتهـا اليوم في معرض هاركستر . ولما اردت شراءها بأي ثمن قـال لي المدير انك سبقتني الى شرائها ..

ثم توقفت برهة عن الحديث قبل ان تتابع كلامها :

- والواقع إني اريد هذه اللوحة .. وبأي ثمن يا مستر ساترويت .. وقد احضرت معي دفتر الشيكات .. وسوف اترك الك تحـــديد الثمن

الذي تريده .

ونظر ساترويت برهة الى الممثلة وهو يشعر في قرارة نفســـه بنفور عظيم من أساليبها المكشوفة للحصول على ما تريد .

إنها لم تعد في نظره إمرأة جميلة او ممثـلة موهوبة ، وإنما مخلوقة أنانيـة مصممة على ان تظفر بكل ما تهفو اليه نفسها .

ولهذا قرر ألا يتنازل لها عن هذه اللوحـة ، بأي ثمن أيضاً .. وراح يفكر بسرعة في أنسب عذر يقدمه اليها ، وهو يرفض تحقيق رجائها .. فقال :

- إني واثق انه لا يوجد الانسان الذي يرفض ان يحقق لك رجاء ، أياً كان يا مس اسبيسيا جلين ..

- إذن فستعطيني اللوحه ؟

فهز ساترويت رأسه وقال بحزن مصطنع .

- يؤسفني القول ان ذلك مستحيل ، لاني اشتريت هذه اللوحـة لكي أهديها لسيدة ..

- أوه ، ولكن .. بالتأكيد يمكنك ..

وهنا صلصل جرس التليفون بعنف ، فتناول ساترويت المسماع ، وإذا سيدة تقول له :

- هل أستطيع التحدث مع المستر ساترويت ؟

- نعم يا سيدتي ، انني هو.

- إنني الليدي شارنلي .. اليس شارنلي ، ولست أدري هل تتذكرني يا مستر ساترويت بعد كل هذه السنوات

- أوه ! كيف يمكن ان أنساك ، يا عزيزتي اليس ؟. هـل هذا معقول ؟

- شكراً يا مستر ساترويت ، الآن أريـد ان أتحدث معك بشأن

لوحة « موت المهرج » التي ابتعتها اليوم من معرض هاركستر . إني في حاجة إلى هذه اللوحة يا مستر ساترويت لأسباب خاصة ، فهل أطمع في ان تتنازل لي عنها ؟

ورأى ساترويت انه تلقى نجـدة من السماء في الوقت المناسب ، وكان يعلم ان اسبيسيـا جلين تسمع حديثه طبعـاً ، ولكنها لا تسمع حـديث الطرف الآخر .

ومن ثم قال مطمئناً :

– يسعدني جداً ان تقبليها كهدية ، ولكنني أرجو فقط أن تأتي إلى منزلي الآن ..

فهل أطمع أن تحققي لي هذا الرجاء ؟

– أوه ، طبعاً ! إن هـــذا أقل ما يجب إزاء كرمك . لسوف آتي فوراً .

ولما وضع المسماع ، قالت اسبيسيا جلين بغضب :

– أكان هذا الحديث عن اللوحة ؟

– نعم ولسوف تأتي السيدة بعد لحظات قصيرة .

فأشرق وجه الممثلة وقالت بغتة :

– لا ريب انك طلبت حضورها فوراً لتتيح لي فرصة إقناعها بالتنازل عنها لي

– نعم يمكنك أن تقنعيها إذا أردت والآن ، هل تسمحين بالانتقال معي إلى الغرفة الأولى ، فإن لدي بعض الأصدقاء ، الذين أحب أن أقدمك اليهم ؟

وفتح لها باب غرفة التدخين ..

ثم قال وهو يقدمها :

– المس جلين . دعيني أقدم لك صديقي القديم الكلونيـــل مونكتون

وصديقي الجديد الفنان بريستو

ثم توقف عن الحديث فجأة حين رأى المستر كوين جالسا في المقعد الذي كان يحتجزه خالياً .

ثم إذا هو يبتسم ويستطرد قائلا :

ــ وصديقي المستر هارلي .. كوين .

وقال مستر كوين :

ــ لقد قدمت نفسي ، لهذين السيدين ، أثناء غيابك عن الغرفة ، يا ساترويت .

وكان ساترويت قد لاحظ ان المس اسبيسيا جلين قد شهقت وتراجعت خطوة عندما نطق باسم صديقه المستر كوين .

ولكنها لم تلبث ان تمالكت نفسها بعد لحظات ، ثم التفتت إلى الفنان بريستو وقالت له :

ــ ما الذي جعلك ترسم هذه الصورة بالذات ؟

فهز بريستو كتفيه .

ثم قال وهو يختلس النظر إلى مستر كوين :

ــ إني لا أدري على وجه التحديد . إنه قصر مثير للخيال ، كما أن الشائعات كثيرة عن أشباحه وغرفه « المسكونة » وعلى كل حال أذكر أن صديقاً أوحى إلي برسم هذه الصورة بعد ان حدثني بمأساة اللورد شارنلي ..

وفي تلك اللحظة ، فتح الخادم البـاب ، وأعلن وصول الليـدي شارنلي .

فأسرع ساترويت لاستقبـالها . وكانت قد بلغت الثلاثين من عمرها أو أكثر قليلا ، وقد تذكرها وهي فتاة في ميعة الصبا ، ممتلئة حياة وابتساماً وقد أصبحت الآن كالطيف الذي يتحرك في خفة وروحانية مع الاحتفاظ

بكل مقومات جمالها .

فقال لها ساتروويت :

– شكراً لحضورك يا ليدي شارنلي .

- ثم سار معها في الغرفة . وبدا عليها انها تعرف الممثلة المس جلين ، فهمت بأن تقدم يدها اليها ، لكن الممثلة ظلت جامدة في مكانها ، فقالت الليدي شارنلي معتذرة ·

– أوه إني آسفة ، فقد خطر لي إني رأيتك من قبل .

فقال ساتروويت :

– ربما على خشبة المسرح .. فهذه مس اسبيسيا جلين .

وهنا قالت مس جلين بصوت أدهش ساتروويت لما فيه من تلوين مسرحي عجيب .

– إني سعيدة جداً بلقائك يا ليدي شارنلي .

ولما قدم بريستو اليها قالت وهي تبتسم :

– لقد التقيت بالمستر بريستو مرة .. في القطار .

وبعد ان عرفها بالمستر كوين الذي قالت عنه انها تذكر ان زوجها الراحل قد ذكر اسمه مرة او مرتين أثناء حديثه مع أصدقائه ، جلس المستر ساتروويت وتنحنح ، ثم قال ، وهو ينظر الى المستر كوين بين لحظة وأخرى :

– إننا الآن نجتمع ، على غير اتفاق سابق ، بسبب لوحة « موت المهرج » ، وأعتقد ان في مقدورنا الآن ان نعرف الحقائق التي كانت غامضة .

فقال الكولونيل :

– ما هذا يا مستر ساتروويت ؟ هل تنوي ان تعقد جلسة تحضير أرواح ؟

ـ لا ، لكن صديقي مستر كوين يعتقد ، وأنا اتفق معه على اننا نستطيع بإعادة النظر إلى أحداث الماضي ان نعلم الحقـائق كما هي ، لا كما كانت تبدو في حينها .

فقالت الليدي شارنلي :

ـ الماضي ؟

ـ اني أعني مأساة زوجك ، يا اليس .. وأعلم ان هذا الحديث قد يؤلمك .

ـ لا انه لا يؤلمني ، فلم يعد ثمة ما يؤلمني الآن !

فنظر ساترويت برهة إلى الليدي شارنلي ، وقد بدت في رقة الطيف أو الشبح !

ثم قال بغتة :

ـ إنك ، يا عزيزتي ، تذكريني « بالسيدة ذات الوعاء الفضي » التي يقال .

طق ! وسقط فنجـــان القهوة من يد الممثلة اسبيسيا جلين على الأرض متحطماً ، بينما تابع ساترويت كلامه :

ـ نحن نقترب .. نقترب جداً ، لكن من أي شيء ؟ لقد قتل اللورد نفسه فلماذا ؟ إن أحداً لا يعلم ؟

فتململت الليدي شارنلي في مقعدها .. ثم إذا بالفنان بريستو ، يقول فجأة :

ـ إن الليدي شارنلي تعلم السبب .

فنظرت الليدي طويلاً إلى الفنان ، فأومأ لها برأســه كأنما يشجعها على الحديث ، وأخيراً قالت بهدوء :

ـ نعم ، انني أعلم السبب .. وهذا ما يجعلني أرفض العودة للاقـامة في القصر .

– هل يمكن ان تخبرينا به ؟

– نعم .. لقد عرفت السبب حين عثرت على خطاب بين أوراقه وقد أحرقته .

– وماذا قرأت في هذا الخطاب ؟

– كان خطاباً من فتاة فقيرة ، كانت تعمل مربية أطفال عند أسرة ميريام . وقد فهمت انه كان بينها وبينه علاقة حب انتهت بأن حملت منه ، وقد ظلت هذه العلاقة قائمة بينهما حتى أثناء خطبتي له . وقالت في الخطاب انها ستخبرني أنا بالحقيقة قبل ان ترفع الأمر الى القضاء ، ولهذا أسرع وقتل نفسه .

وهنا قال الكلونيل مونكتون :

– إذن فقد وضح الأمر وعلم السبب الحقيقي لانتحاره !

وهنا قال ساترويت :

– ولكننا لم نعلم السبب الذي من أجله رسم مستر بريستو الصورة . لكن يمكن ان نستنتج انه ، بخياله وروحانيته ، استطاع ان يرمز للمأساة بالجسد الملقى في الشرفة الكبيرة ، وبالروح التي تراقب الجسد من وراء النافذة المطلة عليها .

فقال الكلونيل :

– ولكن الجسد لم يكن في الشرفة ، وإنما كان في قاعة السنديان ، كما رأيناه .

– ربما كان الجسد في الشرفة أولاً ، ثم حمله شخص ما إلى قاعة السنديان !

فبدت الدهشة على الكلونيل وقال

– إذن كيف رأينا بأعيننا اللورد شارنلي ، وهو يدخل غرفة السنديان سائراً ؟

– حسناً ؟ هل رأيت وجهه ؟ هل انت واثق انه اللورد حقاً ؟ مـا المانع من ان يكون الذي دخل غرفة السنديان رجلا آخر يرتـدي نفس العباءة التي كان يرتديها اللورد في الحفلة التنكرية ؟ ومما أكد لكم انه هـو اللورد ، نداء الفتاة عليه لتبلغه رسالة كلامية !

فقال الكلونيل متهكماً

– وإذا كان الذي دخل قاعة السنديان رجل آخر ، غير اللورد ، فأين ذهب او اختفى .. وقد كانت الغرفة مغلقة الأبواب والنوافـذ من الداخل ؟

– ألم تقل ان بها مخبأ سرياً في الجدار ؟

ثم رفع يده ليمنع الكلونيل من مقاطعته وتابع كلامه :

– لقد أصبح الأمر واضحاً الآن . فلنفرض ان رجلا ما قتل اللورد في الشرفة الكبيرة . ثم تعاون مع رجل آخر وسحب الجثة الى قاعـة السنديان حيث وضع المسدس بجانب اليد اليمنى .

ولكي يبدو الأمر انتحاراً دخل ذلك الشخص الى قاعة السنديان عن طريق الردهـة وهو في ثياب اللورد شـارنلي حتى يظن من يراه انه اللورد .

وكان قد اتفق مع شخصية ما لكي تنادي عليه باسم اللورد شارنلي حتى تجعل الذين يرونه من أعلى يتأكدون انه هو فعلا اللورد شارنلي . وبعد ان دخـل وأغلق البـاب من الداخل بالمفتاح .. أطلق رصاصـة على الجدار .

وبطبيعة الحال لم يلحظ احد الثقب الذي احدثه بجانب الثقوب الجمة الموجوده ثم اختبأ في المخبأ السري . وكان طبيعياً ، بعد ذلك ان يظن الجميع ان اللورد انتحر لانه لم يكن هناك ما يدعو الى الشك في أي احتمال آخر

وقال الكلونيل :

- انني لا زلت أؤمن بأنـــه انتحر فعلا .. والدليل على ذلك هو الخطاب الذي عثرت عليـه الليدي شارنلي في أوراقه .. بعـد ذلك .

- إن هـذا الخطاب مدسوس بين أوراقه عن قصد ، وقد كتبتـه ممثلة صغيرة بارعة ، كانت تأمل يوماً ان تكون هي الليدي شارنلي بعد موت اللورد !

- ما تعني؟

- إنني أعني الفتاة التي اشتركت مع القاتل في تدبير الجريمة ، والقاتل ليس غير هيجو أخ اللورد ريجي شارنلي . وكلنا نعرف ان هيجو كان العضو الفاسـد في عائلة شارنلي . وكان يأمـل ان يرث اللقب والأمـلاك ، بعد مقتل أخيه وقد أشرك معه ، في تدبير الجريمة وتنفيذ الخطة ، عشيقة له !

ثم استدار ساترويت نحو الليدي شارنلي وقال :

- ما اسم الفتاة التي كتبت ذلك الخطاب ؟

- مونيكا فورد .

وهنا قال ساتروبت للكولونيل

- هل كانت مونيكا فورد هي التي نادت على اللورد حين ذهابه إلى قاعة السنديان يا كولونيل ؟

- نعم إني أذكر هذا على وجه اليقين !

لكن الليدي شارنلي اعترضت قائلة :

- إن هذا مستحيل .. لقد قابلت مونيكا فورد بعـــد عثوري على الخطاب ، وأكدت لي ان عـــلاقتها بريجي شارنلي ، كانت حقيقية ، وليس من المعقول ان تبلغ فتاة مثلها ، هذه الدرجة من البراعـة في

التمثيـل !

وعندئذ نظر ساترويت إلى الممثلة اسبيسيا جلين وقال بهدوء :

– أعتقد ان ذلك كان في مقـدورها . لأنها ولدت ممثـلة ، بطبيعتها .

فقال بريستو :

- ولكن ، هناك نقطة واحدة لا تزال غامضة . إذ كيف استطاع القاتل ان يزيل الدماء بسرعـة من أرض الشرفة ، التي حدثت فيهـا الجريمة ؟

فابتسم ساترويت وقال :

- إنه لم يكن هناك الوقت الكافي لإزالة الدماء طبعاً ، ولهذا نقل السجادة من قاعة السنديان ، ووضعها فوق بقع الدماء في الشرفة . وهذه العملية لا تستغرق أكثر من دقيقة .

– هذا معقول جداً ، لكن كان لا بد من إزالة آثار الدماء بعد ذلك على كل حال .

– طبعاً ، طبعاً إن شريكة القاتل ، إنتهزت فرصة الشـائعة التي تدور حول شبح السيدة ذات الوعاء الفضي ، فتسللت ليلاً في ملابس بيضاء وهي تحمل وعاء فضياً به ماء لتزيل آثار الدماء . وكانت مطمئنة إلى ان الذي قد يراها سيفر هارباً منها .

ثم ابتسم ساترويت وتابع يقول للمس جلين :

– أعتقد ان هذا هو سبب سقوط فنجان القهوة منك حين ذكرنا شبح السيدة ذات الوعاء الفضي . اليس كذلك ؟

وأعتقد ، انك أحسست بالخوف حين رأيت صورة « موت المهرج » وقد خطر لك أن شخصاً ما قد رآك مع القاتل ، أثناء ارتـكاب الجريمـة .

وهنا صاحت الليدي شارنلي ، وهي تحدق النظر ، في وجه الممثلة :

ـ انك أنت مونيكا فورد اليس كذلك ؟

فوثبت مونيكا فورد -- أو اسبيسيا جلين . ودفعت ساتروبت بعيداً عنها .

ثم وقفت أمام مستر كوين ترتعد وتقول :

ـ كنت أنا على حق إذن ، حين شعرت يومذاك ، أن هناك من يراقبنا . لقد كنت أنت هناك ، ترانا من وراء النافذة المطلة على الشرفة . لقد رأيت ما فعلنا ، أنا وهيجو .

ولما رفعت وجهي إلى النافذة ، خيل إلي إني رأيت لمحة من وجه إنسان يراقبنا ثم يختفي ، وهذا ما جعلني أعيش في رعب طيلة هذه السنوات ..

ولما رأيت الصورة وأنت فيها واقف وراء النافذة تعرفت عليك . ولكن ما الذي جعلك تلزم الصمت كل هذه الأعوام ؟

فقال كوين بهدوء :

ـ ربما كي يستريح الموتى في قبورهم .

وفجأة ، إندفعت مس اسبيسيا جلين نحو الباب وفتحته ، ثم قالت في تحد :

ـ إفعلوا بي ما شئتم ، فقد أحببت هيجو حب جنون ، وساعدته على تنفيذ خطته التي لم تصل بنا إلى النتيجة المطلوبة

وقد مات هو محسوراً في النهاية .. أما أنا ، فإني أجيد التمثيل والتنكر ، كما قال ذلك الرجل العجوز ، ولن يستطيع رجال البوليس في العالم ان يقتفوا أثري ولسوف أرحل عن البلاد ، في خلال أسبوع .. وداعاً .

وصفقت الباب وراءها ، ثم لم يلبث الجميع ان سمعوا باب المنزل الخارجي وهو ينصفق أيضاً .

وهتفت الليدي شارنلي والدموع تنحدر من عينيها :

- يا زوجي العزيز المظلوم ، لقد عشت حياتي كلها وأنا أحقـــد عليك بسبب ذلك الخطاب المزيف . أمـا الآن .. فأرجو أن تنام في قبرك بسلام ، ولسوف أعود إلى القصر ، وأشيع فيه نبضات الحيـاة من جديد .

ثم نهضت وتقدمت نحو ساترويت وقبلت وجنتيه وهي تقول :

- شكراً لك يا مستر ساترويت . لقد أعدتني الى الحياة ثانية بعد أن كنت أعيش نصف ميتة

ثم صافحت الفنان بريستو بحرارة ، وقالت له وهي تبتسم في عينيـه .

- دعني أهنئك على عبقريتك وأرجو ان أراك في أقرب وقت تزورني في قصري ، ولعلك تستطيع ان تستلهم منه لوحات أخرى .

فلما انصرفت قال ساترويت لبريستو :

- ماذا تنتظر ؟

- أنتظر ماذا ؟

- ألم تشعر انها تبادلك العاطفة ؟

فاضطرم وجه الفنان الشاب . .

ثم نهض مرتبكاً وهو يقول :

- أترى هذا حقاً ؟

والتفت ساترويت نحو مستر كوين ليقول له شيئاً ، لكنه وجده قد رحل بغتة ، كما أتى بغتة .

فهز كتفيه وقال :

– لا ريب ، انك حدثت المستر كوين بلقـائك مع هذه السيدة في القطار ، فأوحى الك برسم هذه اللوحة ، وهو يعرف ما سيترتب عليها من نتائج

إنه لا يهمه الحادث نفسه ، بعد ان انتهى .. ولكن يهمه الأحيـاء من العشاق .

وأرى انه نجح ايضاً هذه المرة في إعادة الحياه الى سيدة لا تزال في رونق الشباب ، وإلى بعث خفقات الحب في قلبها لفنان شاب أسرع يا صديقي ، والحق بها ، ولن تندم .

- ٦ -

لاعب البوكر

جلس بايرون دوكاي وحيداً أمام المائدة الخضراء ذات الثمانية أضلاع ..
وإلى يمينه طاولة أخرى صغيرة عليها ثلاثة صفوف من فيشات البوكر البيضاء والحمراء والزرقاء ..
وإلى يساره طاولة متحركة حافلة بزجاجات الويسكي والنبيذ والكؤوس وقناني الصودا وآنية كبيرة مليئة بقوالب الثلج ..

لم يكن بالغرفة ولا بالشقة كلها أحد سواه . وكان السكون شاملاً فلا صوت ولا حركة .. فأخذ بايرون يعبث ببعض أوراق اللعب للتسلية وقتل الوقت .

إلى ان سمع باباً يفتح وكان الباب في ركن من الغرفـة لا يقع عليه بصره .

فقال بصوت هادىء :

— تعال ..

كان ينتظر قدوم أحد لاعبي البوكر ، لكن الرجل الذي ظهر أمامه

بعد لحظة لم يكن أحد اللاعبين .

كان شاباً قصير القامة نحيل الجسم يرتدي سروالاً ملطخاً بالبقع وقميصاً مفتوح الصدر وفي يده خنجر طويل .

لم يحاول بايرون دوكاي النهوض من مقعـــده . لكنه كف عن العبث بأوراق اللعب وسأل :

-- ماذا تريد ؟

فلم يجب الشاب ، وأجال البصر حول الغرفة في ارتياب ، ثم سأل بدوره :

– هل انت وحدك هنا ؟

فأومأ دوكاي برأسه علامة الايجاب .

ولم يكن من الفطنة أن يفعل ذلك .. لأن الشاب ، قال على الفور :

- حسناً .. إذا لم تثر المتاعب فلن يصيبك أذى .

فقال دوكاي وكان صوته هذه المرة أكثر هدوءاً واتزاناً :

– ماذا تريد ؟

فلم يجب الشاب ونظر حول الغرفة ثانية .

ووقع بصره على زجاجات الخمر فلمعت عيناه وقال :

سأتناول قدحاً من الشراب .

-- إجلس وسأقدم لك قدحاً

وبدافع الحذر ، اتخذ الشاب مكانه في الجانب الآخر من الطاولة في مواجهة دوكاي ، أي على أبعد مسافة ممكنة منه ، ووضع يده الممسكة بالخنجر على الطاولة

فتألق النصل على الغطاء الأخضر كما تتألق الماسة على خلفيـــة من القطيفة السوداء

فسأله دوكاي :

– ماذا تشرب ؟ نبيذ أم ويسكي ؟

وفوجيء الشاب بأن له ان يختار ..

فتردد قليلاً ثم أجاب :

– أريد نبيذاً .. قدحاً من النبيـــذ ، مزوداً بقليل من قوالب الثلج .

وساد الصمت ثانية ، بينما راح دوكاي يسكب النبيذ في القدح ، ثم دفع بالقدح الى الشاب .

فتناوله هذا ، بيده اليسرى ، ورفعه إلى شفتيه واحتسى منه جرعة كبيره وقال

– اني أريد نقوداً ومفاتيح سيارتك .. واريـــد ان أعرف أين تركت سيارتك .. كما اني بحاجة لبعض الثياب .

فلم يأت دوكاي بحركة لإجابته إلى ما طلب .

فقال في هدوء :

– يبدو ان هذه عملية سطو غير عادية

فقال الشاب وهو يحتسي جرعة أخرى من الشراب :

– نعم !.. إنها عملية سطو غير عادية .. فتحرك .. انك سمعت ما قلت .

فقال دوكاي ليغير مجرى الحديث

– من أنت على أي حال ؟

– ليس ذلك من شأنك

– لا بد انك ريك مسدن.

فارتسمت على شفتي الشاب إبتسامة تنم عن الخيلاء ..

ثم قال :

- يخيل لي انك تتابع أنباء الراديو والتليفزيون
- أحياناً .
- حسناً .. أنا ربك مسدن ، وقد قتلت شخصين في مشرب في الأسبوع الماضي قتلت صديقتي وعشيقها الجديد ، وأعتقلت بعد يومين . ولكنني استطعت الفرار أمس .

فقال دوكاي وهو يمد يده الى أحد الأقداح :
- هل لديك مانع من ان أتناول قدحاً معك ؟

ولكن مسدن ترك قدحه بسرعة ، وصاح وهو يدق الطاولة بيسراه في عنف :
- دعك من الشراب الآن .. لقد ذكرت لك مطلبي ، ويجب أن تلبيه فوراً .
- لنتكلم في ذلك يا مسدن

فقال الشاب والخنجر يهتز في يده .
- إصغ الي يا هذا إما ان تفعل ما أريد . وإما ان أمزقك إرباً كما فعلت بالآخرين .

لكن دوكاي لم يحفل وقال بسرعة وبصوت الآمر :
- الزم مكانك يا مسدن .. قبل ان تحاول تمزيقي ، يحسن بك أن تصغي الى ما أقول .

فأحس مسدن بما في لهجة محدثه من تحد فجمد في مكانه .. حتى خنجره كف عن الاهتزاز ..

قال أخيراً :
- هأنذا مصغ .
- حسناً .. دعنا نحلل موقفنا يا مستر مسدن .. اننا نجلس في مكانين متقابلين أمام الطاولة .. وبيننا حوالي مترين أنت في يدك خنجر وأنا

في الوقت الحاضر أعزل من السلاح ..

ولكني كنت أفكر منذ لحظة فيما أستطيع عمله اذا أنت قررت أن تلجأ إلى العنف .

لا شك انني يجب ان أدافع عن نفسي . فهل تعرف كيف سأفعل ذلك ؟.
إذا أنت أتيت بأية حركة للنهوض من مقعدك فإني سأقلب المائدة فوقك ..
أنا واثق من إني أستطيع ذلك ..

قد تكون أصغر مني سناً يا مسدن ، لكنك ترى ان حجمي ضعف حجمك تقريباً وسيكون الموقف كما يلي في المرحلة الأولى من معركتنا ..
ستكون أنت ملقى على الأرض والطاولة فوقك .. او تكون ، إذا ساعدك الحظ ، ملتصقاً بالجدار ، والطاولة بيني وبينك . هل تفهم ما أعني ؟.

وأحس الشاب بالقلق والفضول رغم غضبه فأجاب :

- نعم .

-- تنتقل إذن إلى المرحلة الثانية .. هل ترى المكتب الذي خلفي إلى اليسار يا مسدن ؟. أظنك تستطيع من مكانك ان ترى الشيء الذي أعنيه يا مسدن .. انه خنجر تركي مرصع ، أستخدمه في فض رسائلي .
وسيكون أول ما سأفعله بعد ان أقلب المائدة فوقك ، ان أتناول الخنجر .

وبذلك نتساوى في السلاح اليس كذلك يا مسدن ؟

فحملق الشاب أمامه ولعق شفته بلسانه ..

لكنه لم يقل شيئاً ..

ومضى دوكاي بحديثه .

فقال بمزيد من الثقة :

هذه هي الخطوة الثانية .. وتستطيع ان تصفها بأنها نهاية الاستعداد

المعركة ..

تأتي بعد ذلك الخطوة الثالثة ، وبها تبـــدأ المعركة ذاتها ، فكيف سيكون موقفنا ؟.

ومرة أخرى لعق الشاب شفته ولم يجب .

قال دوكاي :

– دعنـــا نستعرض أسلحتنا ، يا مسدن . مـــا نوع الخنجر الذي بيدك ؟.

– إنه خنجر حاد النصل أعطانيه أحد السجناء .

فقال دوكاي وعلى فمه ابتسامة :

– إسمح لي ان أقـول ، بأنني أتفوق عليك قليـلا ، في موضوع السلاح . فإن خنجري أطول وأمضى .. وأفضل معدنـــاً من خنجرك .

– إصغ إلي يا هذا ..

لكن دوكاي مضى في حديثه قال :

- هناك ما هو أهم من الأسلحة . هناك أبطال المعركة أنفسهم ، دعنا نقوم بمقارنة بسيطة .

كم عمرك يا مسدن ؟.

– تسعة عشر عاماً

أنا في الحادية والثلاثين .. هذه نقطة تفوق يسيرة لصـــالحك .. كم يبلغ وزنك ؟

– مائة وعشرون رطلا ..

- إنني أثقل منك بستين رطلا . وهـــذه نقطة تفوق لصالحي .. والآن .. لننظر إلى مؤهلاتنا

إنني كنت بطل أميركا في البيسبول منذ عشر أعوام ، ولعبت ظهيراً في

الفريق القومي لكرة القدم .

وأجيد لعب التنس والسباحة ، وأهم من ذلك اني أتمرن ساعة كل يوم للاحتفاظ بلياقتي البدنية .. فلم يزد وزني جراماً واحداً منذ غادرت الجامعة . وذلك أمر له أهميته . والآن . ما قيمتك الرياضية يا مسدن ؟

فغر لون الشاب . وحاول ان يقول شيئاً .. فلم يسعفه ذهنه ..

قال دوكاي :

دعني أحللك على ضوء ما أرى يا مسدن . إنك تعاني من سوء التغذية بصفة مزمنة . ليس لأنك لم تكن تجد ما تأكله . وإنما لأنك لم تجد من يسهر على تغذيتك ، وهكذا لم تتح لك فرصة لتناول الطعام المناسب ..

هل تعرف أن نحولك غير عادي ؟.

أضف الى ذلك العادات السيئة التي تمارسها . أكبر الظن انك تدخن منذ كنت في التاسعة او العاشرة من عمرك . ذلك واضح من البقع التي تصبغ أصابعك .

والله وحده يعلم ماذا تدخن الآن ؟. لعلك تدخن شيئاً أقوى من التبغ ؟.

ثم انك تشرب من الخمر أضعاف ما أشرب ..

أنظر إلي يا مسدن ، ثم انظر الى نفسك .. وقل بصراحة أينا أقوى بنية وأصح بدناً .

فقطب الشاب ما بين حاجبيه ونظر إلى مضيفه بحدة .

قال دوكاي :

– إننا لم نتكلم بعد عن أهم عامل في المعركة وأعني به الشجاعة ،

والرغبة من القتال وركوب الأخطار ..

انك كنت شجاعاً جداً عندما دخلت هـذه الغرفة . كنت شجاعاً لأن بيدك خنجراً . ولأنك ظننت انني أعزل . ولكن ، مـا مبلغ شجاعتك الآن ؟

إنها أقل مما كانت منذ بضع دقائق فيما أعتقد . انك دخلت هـذه الغرفة وأنت تتبختر وتهدد بتمزيقي ارباً ..

أما الآن فهناك احتمال كبير في أن تتمزق انت ارباً . ان موقفك لا يدعو الى الارتياح التام كما ترى

– أنت تحاول خديعتي

– أتعتقد ذلك ؟. ما عليك لكي تتحقق إلا ان تحاول النهوض من مقعـدك .

وعاد دوكاي الى الحديث ، قال :

– ثمة مسألة أخرى لا يجب ان أغفلها .. هي مسـألة الحافز .. قد لا تكون أشجع الرجال ولكن لديك حافز قوي للقتال ..

انك اذا قتلتني فلن يصيبك ضرر ، وستظفر بنقودي وسيارتي وأي شيء آخر تريده .

أما اذا قتلتك فإنك لن تكون قد خسرت شيئاً أكثر مما كنت ستخسره قبل فرارك من السجن .

وهنا لمع في عيني الشاب شيء يشبه الأمل .

قال بصوت ينم عن الدهاء :

– ماذا ستربح من قتالك معي أيها السيد ؟.

فأجاب دوكاي :

– هذا سؤال وجيه . ان في مقدوري ان أدعـك تأخذ ما تريد .. وبذلك أزيد متاعب البوليس وأرجيء اعتقالك يوماً أو أسبوعاً .. وقـد

يحدوني الأمل في انك قد تذهب من هنا في سلام بعد أن تأخذ ما تريد .. دون أن تفعل بي أكثر من ان تشد وثاقي .. ولكني في الواقع لا أستطيع ان أثق بك الى هذا الحد . لأنك انسان سافل شرير تجد لذة في ممارسة العنف وايذاء الغير .

انك قد تقنع بأن تركلني بقدمك ، ولكنك من جهة اخرى ، قد مارست القتل .

ولا اظنك ستتردد في قتلي اذا سنحت لك الفرصة ..

فقطب الشاب حاجبيه ، وارتسم الشر في عينيه .

فمضى دوكاي يقول :

– أضف الى ذلك يا ماسدن اني لا أحبك كثيراً .. فأنت مخلوق سافل مجرد مخلوق سافل .. يسرني ان ألحق بك اعظم ضرر ممكن ، حتى ولو كلفني ذلك حياتي .

فتحرك مسدن في مقعده بقلق ولكنه لم يحاول النهوض .. واهتز الخنجر في يده مرة أخرى .

قال :

– اذن فسنتقاتل بالخناجر أيها السيد ؟

– ذلك ما سيحدث حتماً اذا حاولت النهوض من مقعدك .

فأفرغ مسدن محتويات القدح في جوفه وقال :

– حسناً .. ابدأ اذاً أيها السيد ..

– لم أقل لك اني سأبدأ شيئاً .. انا قلت لك ماذا أنوي عمله اذا انت بدأت .

* * *

وكان الصمت في هذه المرة طويلا وعميقاً .

كان كل من الرجلين يواجه الآخر ..

كانت ايديهما على المائدة .. مع فارق واحد . هو ان ماسدن كان ممسكا بخنجر في يمناه .

وانتقلت عينا مسدن ، من وجه دوكاني الى المكتب .. والى الخنجر التركي ..

ثم ارتدتا بسرعة .

قال :

— لماذا لا تعطيني ما أطلب ؟. بضعة دولارات وبعض الثياب ومفاتيح السيارة ؟. ان اموالك مؤمن عليها طبعاً فأنت لن تخسر شيئاً .. لماذا لا تعطيني ما اطلب ؟.

— ذلك لن يكون .

فعض الشاب على شفته وقال

— ماذا سيحدث اذن ايها السيــــد ؟. هل سنظل جالسين هكذا ؟. قلت انني اذا اتيت بحركة فإنك ستقلب الطاولة علـي وتختطف الخنجر وتبدأ المعركة ..

فنحن بين امرين ..

اما ان نتقاتل .. او نظل جالسين .. اليس كذلك ؟. في حين أني يجب ان اذهب ..

وفجأة .. ومض في ذهنه خاطر ، وهم بالنهوض .. ولكنه عدل عن ذلك على الفور .

وصاح :

— فهمت .. انك تنتظر قدوم بعض اصدقائك للعب الورق ، وتحاول ان تستبقيني هنا الى ان يحضروا .

فظل دوكاي على هدوئه .

ثم قال

– إنني العب لعبة بارعة ، اليس كذلك يا مسدن ؟. نعم ، إني أتوقع قدومهم في أية لحظة

– لكنك لن تمضي بغير عقاب .

– ما زال في استطاعتك ان تختار .. في مقدورك ان تنهض من مقعدك فأقلب الطاولة عليك واختطف خنجري . وبذلك تتهيأ لك الفرصة لتجرب حظك .

فصاح الشاب وهو يرتجف :

– لكني لن أستطيع البقاء هنا إلى الأبد .

فقال دوكاي :

– يوجد حل آخر بطبيعة الحال يا مسدن .

فهتف الشاب وقد تألق الأمل في عينيه .

– ماذا تعني ؟

فرد دوكاي :

– إذا تقاتلنا فإنني سأتعرض أيضاً للخطر .. وأنا لا أحب المخاطرة لذاتها .. ولذلك فإنني على استعداد لمساومتك : سلامتي في مقابل هروبك !.

أعني هروبك صفر اليدين !.

– إستمر .. إنني مصغ اليك

وتابع دوكاي :

– إنني أشعر بالخطر ، طالما هذا الخنجر في يدك لأنك قد تنهض فجأة ، فلا أدري هل ستهاجمني ام ستفر ؟.

إن نهوضك سيجعل المعركة ، أمراً محتوماً ، مهما تكن حقيقة

نواياك ..

هل فهمت ما أعني ؟

– أظن انني فهمت

– إن خنجرك هو مفتـــاح الموقف . أنت تريد الفرار ، وأنا لا أريد القتال .

وطالما هذا الخنجر في يدك ، فإنك لن تستطيع حراكاً دون أن تقوم بالمعركة !

الحل الوحيد إذن هو أن تلقي بخنجرك على الطاولة .

– ماذا ؟

– نعم ، الحل الوحيد . هو ألا يحمل أحد منا سلاحاً .

– وماذا يكون من أمري ؟ هل نسيت انك رجل رياضي ؟.

قال دوكاي :

– إن المائدة بيننا . وأنت أقرب إلى الباب ، ولن يكون في استطاعتي اللحاق بك .

فقال مسدن :

– ولكنك قد تتصل بالشرطة تليفونياً .

فابتسم دوكاي وقال :

– أنتَ شاب ذكي يا مسدن . الواقع اني لم أفكر في ذلك ولكني على استعداد لأن أعقد معك صفقة أخرى ..

تليفوني مقابل خنجرك .

إن تليفوني هنا على المكتب ، فإذا سمحت لي فإني سأمد يدي وأنتزع التليفون من أسلاكه.

ومتى فعلت ذلك فعليك أنت ان تلقي بخنجرك على المائـدة وتطلق ساقيك للريح .

ففكر مسدن في هذه الصفقة .

فكر بسرعة وتركيز .. بينما كانت عيناه تصمدان دوكاي وتقيسان إتساع كتفيه ، ومدى صلابته.

وأخيراً قال :

– حسناً .. إنتزع التليفون أولاً وسأظل محتفظاً بخنجري ، فإذا حولت يدك إلى الخنجر بدلاً من التليفون ..

فقاطعه دوكاي قائلاً :

– ما عليك إلا ان تتبعني ببصرك .

وببطء ، ودون ان يحول عينيه عن غريمه .. مد دوكاي يده اليسرى إلى المكتب ، وأمسك بآلة التليفون وجذبها بقوة .. فانقطعت الأسلاك .

قال :

– هل اطمأننت الآن ؟

والقى بالتليفون على الأرض.

وتابع قائلاً :

– الآن .. الق بخنجرك إلى وسط المائدة ، حيث لا يسهل على أحدنا التقاطه .

والتقت عيونهما .

كان كل منهما لا يزال يرتاب في الآخر ، ولا يثق فيه . ومرت لحظة لم يبد أحدهما خلالها حراكاً .

وأخيراً قال دوكاي :

– هلم يا مسدن . طالما الخنجر في يدك فلن تستطيع الحراك ، من هذا المقعد .

وفي صمت ، وعلى كره منه ، القى مسدن بالخنجر ، إلى وسط

الطـاولة ..

ثم قال :

– إبق حيث أنت لأني سأذهب .

فقال دوكاي :

– يؤسفني ، اني لا أستطيع ان أشد على يدك .. وأتمنى لك حظاً سعيداً .

* * *

وفي هذه اللحظة .. سمع الرجلان حركة في الخارج ..

وتردد مسدن لحظة في تأويل ما سمع .. ثم وثب من مقعده .. وانطلق يعدو نحو الباب .

ولم يتحرك دوكاي من مكانه .. ولكنـــه أمسك بحافة الطاولة ، وصاح بأعلى صوته :

– إقبض على هذا الشاب يا سام .. إنه مجرم .

* * *

وحدثت جلبة خارج الغرفة ، اقترنت بصياح وسباب ..

ولم يحـاول دوكاي مغادرة مقعـده ، وقنع بالاصغاء الى ما يحـدث في الخارج .

واستمرت المعركة خارج الغرفة بضع ثوان أخرى .. انتهت بصوت لكمة قوية وسقوط جسم .

وحينئذ فقط اعتدل دوكاي في مقعده ، وتنفس الصعداء ، وجفف العرق المتصبب على جبينه .

* * *

وبعد ساعتين ، عاد الكابتن سام ويليمز الى شقة دوكاي ليشترك في لعب البوكر .

كان قد أمضى هاتين الساعتين في مركز الشرطة ، حيث أسلم ريك مسدن الى رجال الأمن .

وأدلى بأقواله عن كيفية اعتقاله .

* * *

نظر الكابتن سام الى دوكاي وهز رأسه وقال :

— لا أحسبني سأجرؤ على لعب البوكر معك ، مرة أخرى ، يا دوكاي .. لم يخطر ببالي ، قط ، ان لك كل هذه القدرة على الخداع ..

قال دوكاي:

— هذا اطراء لا أستحقه .. الواقع انني كنت حسن الحظ فحسب .. قبل ان تذهب زوجتي لزيارة أختها ، رجوتها ان تساعدني على الانتقال من الكرسي المتحرك الى هذا المقعد أمام الطاولة ..

إني أفضل في بعض الأحيان ان أستقبلكم وأنا جالس في مقعدي .. ان ذلك يشعرني بأنني لست كسيحاً تماماً ..

ولو قد رآني مسدن جالساً في الكرسي المتحرك ، لما استطعت خداعه لحظة واحدة .

فأطرق سام برأسه موافقا ..

ثم أرسل بصره عبر الباب الى غرفة النوم ، حيث كان الكرسي المتحرك يتألق تحت المصباح الكهربائي .

لا ريب ان ريك مسدن لم ير هذا المقعد ، او لعله رآه ، فلم يفطن الى علاقته بالرجل الجالس أمام طاولة البوكر .

- ٧ -

العين الفاضحة

الحظ يواتي صاحب العقل المنظم .

هذه هي العبارة التي قالها (باستير) ، وقرر الدكتور كوبلر ان يثبت صدقها على مستوى ثمانين الفاً من الدولارات ، هي قيمة الغنيمة التي ظفر بها لص سطا على أحد بنوك الحي منذ ثلاثة شهور على مرأى من الدكتور كوبلر .

وكان كوبلر قد انهى لتوه فترة التدريب بمستشفى (ويلوبي) وكان هو الوحيد بين شهود الحادث الذي تؤهله خبرته وتجاربه للتعرف على اللص المقنع .

والواقع ، ان قليلين جداً من الناس ، يعرفون كيف يستخدمون عيونهم ..

ومن بين هذه القلة او في مقدمتهم الأطباء .

ذلك ان اية علامة او ندبة او تغيير في اللون ، له عند الأطبـاء مغزى ودلالة ..

وهم لذلك يروضون أنفسهم على الملاحظة بدقة وتركيز قلما يتوفران لغيرهم من الناس .

ولم يكن أي عمل جانبي ، حتى ولو كان جريمة قتل ، ليصرف الدكتور كوبلر عن ملاحظة العمل الرئيسي ..

فعندما استولى الذعر على احدى عميلات البنك فأرسلت أولى صرخاتها الهستيرية .. اهوى اللص المقنع على رأسها بمقبض مسدسه ، وأدرك الدكتور كوبلر .. حتى قبل ان يمس مقبض المسدس الرأس ، ان جمجمة المرأة ستتهشم ..

ولكنه مع ذلك ركز على ملاحظة الرجل دون الحادث .

فعل ذلك في هدوء ورباطة جأش ، دون ان يلفت اليه نظر اللص المقنـــع .

كان القناع يخفي وجه اللص فيما عدا عينيه ، وقد لاحظ كوبلر ثقلاً بسيطاً في حركة النصف الأيسر من جسد اللص .

وعندما التقت عيونهما ، في لمحة سريعة .. لاحظ كوبلر ان انســان احدى عيـني اللص ، اصغر كثـيراً من انسان العـين الأخرى .

كل هذه العلامات كانت تعني امراً واحداً .. هو ان مخ اللص مصاب بتلف قوي .

وهذه الملاحظات ، كان يمكن ان تفيـــد البوليس كثيراً ، ولكن الدكتــور كوبلر احتفظ بها لنفسه ، دون ان يعرف لذلك سببــاً او مبرراً ..

بيد انه كان يشعر ، في قرارة نفسه ، بأن الموقف مــليء بالاحتمالات ..

ومن هذه الاحتمالات ان يموت اللص وحيداً كما سطا على البنك وحيداً

دون ان يفضي الى احد بالمكان الذي اخفى فيه غنيمته .. ومنها انه ، اي الدكتور كويلر ، هو الوحيد الذي يستطيع التعرف عليه .. صحيح ان اللص كان مقنعاً .. ولكن يكفي ان يرى الدكتور مشيته او ينظر في عينيه كي يتعرف عليه .

* * *

على ان الطبيب لم يكن بحاجة الى البحث عن ضالته ..

فقد اتفق ، بعد نحو ثلاثة شهور ، بينما كان يعمـــل في مستشفى (ويلوبي) كأخصائي في جراحة المخ .. انهم احضروا اليه نفس الرجل كمريض ..

ذلك ان صاحبة البيت الذي يقيم به اللص ، وجدت هذا الأخير مشلولاً في فراشه وقد تعطل نصفه الأيسر عن الحركة ، مما يدل على ان التلف الذي اصاب مخه قد استشرى .

وفي البداية ، لم يكن الدكتور كويلر واثقا من ان المريض هو اللص ، ذلك لأنه لم يره وهو يسير ..

لكن كانت هناك العين ذات الانسان الصغير ، والعين تكفي لإرشاد الطبيب البارع الى شخصية صاحبها كما لو كانت صورة فوتوغرافيـــة للوجه كاملاً .

وقرر الطبيب ان الرجل لا يمكن إن يكون قد انفق الغنيمة كلها .. اذ ليس من المألوف ان يسارع اللصوص الى انفاق مبالغ كبيرة على نحو يلفت اليهم الأنظار .. خاصة اذا كانوا من اصحاب السوابق الذين يراقبهم البوليس .

وقد كانت لهـــذا اللص سوابق ، استطاع الطبيب ان يعرفهـا بفضل التعاون ، الذي الفه اطباء المستشفيات الكـبرى ، مع دوائر الأمن .

ولعله كان في الإمكان انقاذ حياة المريض ، لكن ذلك كان منوطا بالطبيب وحده .. بحكم مهنته ..

ولذلك لم يكن هناك من يحق له ان يسأل الطبيب او يرتاب في سلوكه عندما تسلل الى غرفة المريض ، بعد منتصف الليل ، وحقنه بـــادة الاسكوبالومن .. التي يطلقون عليها اسم عقار الصدق ..

وهو العقـــار الذي يطلق الألسنة .. فلا يقول اصحابها الا الحقيقـة ..

وشرع الطبيب في استجواب اللص ، وعينه على الباب خوفا من دخول احدى الممرضات :

- اين النقود التي اخذتها من البنك ؟

فتمتم اللص قائلاً :

- النقود ؟ انني اخفيتها .

- اين ؟

فرد اللص : .

- في « الـكامينو » .. على بعـد ثلاثين خطوة ، شرق الطريق الرئيسي ..

- عند معسكر (نيدرلتون) ؟

فأجاب اللص :

- خارج المعسكر .. هل تظنني من الغفـــلة بحيث اخفيها داخل معسكر مليء بالحراس ؟.. ان المبلغ كله هناك .. ثمانون الف دولار .. في حقيبة من الورق تحت عمق ثلاثين سنتيمتراً . وليس هناك من يقوم بأعمال

الحفر ..

فسأله الدكتور :

— هل انت واثق من انك اخفيت المبلغ هناك ؟

— كله هناك .. وسوف اعود لاستخراجه .. وبعـــد ذلك اذهب الى المكسيك .. او الى كندا ..

سأكون غنيا ..

فتفرس الدكتور كويلر في وجهه . وتذكر كيف هبط مقبض المسدس على رأس المرأة فهشمه ..

ولكنه كان أميناً مع نفسه .. فـــلم يزعم لها ، ان قتل المرأة هو الدافع .. لأنه كان سيفعل نفس الشيء ، حتى ولو لم يكن اللص قد قتل المرأة .

وبأعصاب هادئة .. وأصابع خبيرة . ضغط الطبيب على شريان معين في الرقبة ينقل الدم إلى المخ .

فمات اللص في هدوء دون مقاومة ..

وفي هدوء كذلك غادر الطبيب الغرفة .

لقد كان من المحتمل ان يموت اللص في أية لحظة موتة طبيعية ، بسبب التلف الشديد الذي أصاب المخ ..

لكن كان من المحتمل من جهة أخرى ، وبفضل مهارة كويلر ان يبرأ اللص من إصابته ويعيش .

لكن ذلك موضوع يتسع للجدل .

ومن العجيب ان الطبيب تذكر (العين) ، في ذلك الوقت ، بالذات ..

كانت عيناً من الزجاج الملون طولها خمسة أقدام ، تطل من أعلى نافذة في كنيسة القرية التي ولد فيها ..

وكثيراً ما كان أبوه الدكتور كويلر العجوز يشير إلى هذه العين كلما ذهبا إلى الكنيسة في أيام الأحد .

ويقول له :

– هذه عين الله . إنها ترى كل ما تفعله . ولا يخفى عليها شيء حتى ولو كان في أعماق قبو مظلم . هل فهمت يا بني ؟. لذلك يجب ألا تفعل ما يغضب الله .

وهكذا عاش كل حياته في فزع من تلك العين .. التي كانت تتراءى له في نومه ويقظته ..

فقرر ذات يوم أن يتجاهلها .

* * *

أما الدكتور كويلر العجوز ، الفاضل .. فإنه عاش محترماً .. ومات فقيراً .. ولم يترك لأسرته سوى ديون على المريض لم يتكلفوا عناء سدادها .

وتساءل الدكتور كويلر الشاب .. ترى ، ما رأي (العين) فيه الآن ، بعد ان أصبح قاتلاً .. وسيصبح عما قريب صاحب ثروة مسروقة ؟.

إنه أقدم على شرور كثيرة ليصل إلى مركزه الحالي ..

كان وهو طالب بالمدرسة الثانوية يعمل صرافاً في أحد المتاجر الكبرى فتعلم كيف يغالط الزبائن ويضع الفروق في جيبه ..

ثم كان وهو طالب طب يستغل شهرة أبيه في إجراءات عمليات الإجهاض التي يحرمها القانون لقاء أجور خيالية ..

فعل هذا وذاك ، ولكنه لم يتصور انه يمكن ان يقدم يوماً على قتل أحد المرضى

بيد ان كل هذا قد مضي الآن وانقضى ..

لقد أصبح مستقبله مضموناً الآن ..

وسوف يستطيع ، بفضل الثمانين الف دولار ، ينشيء عيادة خاصة على أرفع مستوى .

وتذكر اعتراف اللص ..

كان من الغباء حقاً ان يضع المبلغ الضخم في حقيبة من الورق .. لكن تلك هي عقلية اللص وطريقة تفكيره .

على انه مما يطمئن له ان تلك المنطقة من كاليفورنيا قليلة الأمطار .. وإذا هطلت الأمطار فإنها لن تهطل قبل شهر أكتوبر .. فالنقود إذن في مأمن إلى حين .

* * *

وبعد بضعة أيام ، قرر كويلر معاينة المنطقة ، وتحديد البقعة في ضوء النهار .

على ان يعود اليها ليلا لاستخراج الغنيمة .

ولكن لشد ما كان ضيقه وغيظه حين ذهب إلى المنطقة ، ووجدها تعج بالحركة ، ورأى الطريق مليئاً بالقار والرماد ، وبقع الزيت .. وقطع المطاط ..

ثم أبصر بالدخان يتصاعد من الأعشاب الطويلة الجافة التي تغطي مساحات شاسعة من الأرض الرملية .

ورأى عربة حمراء صغيرة من عربات المطافىء ، تقف على جانب الطريق ، وبالقرب منها رجل متقدم في السن ، يرتدي بزة رجال المطافىء ، وبين يديه اسطوانة مما يستخدم في رش الحرائق بالمواد الكيمائية ..

فدنا منه وقال :

– ماذا حدث؟ إني طبيب .

فرد الرجل ببساطة :

– لا عمل لك هنا يا دكتور ، فقد ذهبت عربة الاسعاف بالسائق منذ ساعة . أما ما حدث فهو نفس المألوف ..

لقد ظن سائق سيارة نقل الزيت انه يستطيع قيادة السيارة بنفس الرعونة التي يقود بها سيارة صغيرة .

فأفلتت عجلة القيادة من يده ، وانقلبت السيارة ، واشتعلت فيها النيران .

وكان من الواضح ان السيارة المحطمة قد نقلت ، وان النار توشك ان تخمد ..

ولكن كويلر كان مطمئناً إلى سلامة النقود . فقرر ان ينتظر يوماً او يومين ثم يعود لاستخراجها في إحدى الليالي القمرية ..

ومما زاده اطمئناناً ان معسكر (بندلتون) كان يقع على بعد مائتي متر على الأقل .. ولن يفطن أحد الى وجوده ، إلا إذا أضاء مصابيح سيارته ..

يضاف إلى ذلك ان وجوده في المنطقة ليلاً ، لن يثير ريبة أحد .. فهو طبيب .. والطبيب يمكن ان يدعى لزيارة مرضاه في أية ساعة من الليل والنهار .

وعلى ذلك فقد شكر رجل المطافىء .. وانصرف متظاهراً بقلة

الاكترات .. ولكنه حرص على ان يحصي خطواته ، وبعد ثلاثين خطوة ، وجد قطعة مطاط محترقة .. فاتخذها كعلامة ترشده إلى مكان الغنيمة .

فغادر المكان وقلبه مفعم بالأمل .

* * *

وفي الساعة الثانية صباحاً ، بعد ثلاثة أيام ، عاد إلى المنطقة ومعه فأس ، فوضع يديه في قفاز من الجلد وراح يحفر الأرض في المكان المحدد ، وكانت رائحة الحريق ، والزيت والمواد الكيمائية ، لا زالت تنبعث من الرمال .

وفجأة وجد كتلة سوداء متفحمة .. فمد يديه وانتزعها من الأرض ، ولكنه ما كاد يفعل ذلك حتى تحلل القفاز وتساقط اجزاؤه ، وأحس كأن يديه تحترقان . وفي نفس اللحظة ، صعدت الى أنفه رائحة حامض النتريك (ماء النار) .

فأدرك ، والذعر يملأ قلبه ، ان السيارة لا بد قد كانت تنقل شحنة من هذا الحامض إلى قاعدة الصواريخ القريبة . فلما انقلبت .. سال الحامض على الأرض وتخلل الرمال .. فأحال الحقيبة والنقود إلى عجينة سوداء لا قيمة لها .

وعاد الدكتور كوبلر الى سيارته وهو يترنح .. فشعر كأن يديه تحترقان .. ولكن لا بأس .. إن بشرة اليدين ستتجدد بعد بضعة أيام .. أما النقود .

حقاً .. إن فقدها صدمة لا تحتمل ..

وأسرع الى غرفته في المستشفى ليعالج يديه ..
ثم خطر له ان يحتسي قدحـــا من الويسكي .. فصب الشراب في القدح .. وقرر ان يضيف اليه بعض الماء ، من صنبور في الغرفة ..
ولكنه ما كاد يصل إلى الصنبور حتى سقط القدح من يده .. فحدث نفسه بقوله :
- يا للشيطان .. كيف يفلت القـــدح من بين أصابعك .. وأنت جراح ؟..
ونظر إلى وجهه في المرآة .. ورأى ان إنسان إحدى عينيه ، أصغر من إنسان العين الأخرى .

- تمت -